دورية تصدر كل شهرين

حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

السنة الحادية عشرة / (يناير - فبراير) ٢٠١٦
www.hiragate.com

ركضًا إلى الله

ما أعظمَ سيرك إن كنتَ إلى الله تسير..
وما أجلّ سموّك إن كنتَ إليه تسمو..
ولكن، خذ حِذرك ومنه تعالى اطلب العون..
فشعاب الطريق كثيرة العثرات،
فإن زلّت قدمُك، سقطتَ أرضًا،
فلا قوامُك الرفيع يجدي،
ولا خطوك الرشيق يُسعِف.

* * *

٢ الروح الباعثة
فتح الله كولن

٦ مجتمع الرحمة
د. عائض القرني

٤٧ القوانين العشرة للتميز النحلاوي
د. فؤاد البنا

بحثًا عن الروح

عندما أصيبت روح الأمة بالعطب، وغشيتها غاشية من الظلمة، وفقدت توهجها وتألقها؛ تدهورت، وتدهورت معها القيم، ونضب معين الشجاعة، وبدأت تفقد مُثُلها العظمى شيئًا فشيئًا وتتناسى رسالتها، فتراجعت حتى غدت في مؤخرة الأمم وفي ذيلها بعد أن كانت في الصدارة منها. ولا عودة لهذه الأمة إلى سابق عهدها من القوة والمنعة واحترام الأمم، إلا بانبعاث روحي جديد ينتشلها من وهدة التخلف والضياع.. إلى هذه الروح العظيمة يشير الأستاذ فتح الله كولن في مقاله الرئيس لهذا العدد من حراء.

وفي مقال "مجتمع الرحمة" ينبّه "عائض القرني" إلى ملامح الرحمة في المجتمع الإسلامي، "فإن من ينظر إلى مجتمعنا يجد أننا قساة مع بعضنا، إذا خالفَنا شخص أغلظنا عليه وجُرنا في الحكم"، وهذا مما ترفضه القيم الإسلامية التي تجد في الرحمة مفتاحًا علاجيًّا لأخطاء المذنبين أو المخطئين.

ويكتب "ناصر أحمد سنه" عن "تلاميذ مدارس الخدمة وقدراتهم المتميزة"، مؤكدًا على أن هذه المدارس إنما هي صروح علمية وإيمانية تعمل على توكيد الصلة بين عقل الإنسان وعقل الكون. كما يشيد المقال بأهلية الأساتذة العاملين في هذه المدارس وقدراتهم الفائقة ليس على التعليم فحسب، بل وعلى التربية الإيمانية والسلوكية.. وذلك بما يقدمونه من نماذج في السلوك والعلم والتواصل مع التلاميذ، مما يجعلهم يتخذون من معلّميهم قدوة في كل شيء. ومن هنا جاء تميزهم وتفوقهم على أقرانهم في أعرق المدارس العالمية، حيث يحوزون على قصب السبق والأولوية في كل الاختبارات التي تجريها لهم معاهد علمية معتبرة على مستوى العالم.

و"الشاهد البوشيخي" في مقاله "نظرات في مفهوم القوة في الإسلام" يتحدث عن بعض مظاهر القوة التي يمكن الإفادة منها، حتى في العبادات التي يؤديها المسلم في نهاره وليله فيقول: "إن الإسلام يهتم بالمعاني الخارجية، ولكن المعاني الداخلية عنده أهمّ، وإنما تعتبر المعاني الخارجية وسائل ومساعدات لتحصيل تلك المعاني الداخلية".

وعن "الجمال وسؤال المقصد في القرآن الكريم" يكتب "عبد القادر بوعرفة" فيقول: "نؤمن بأن الجمال حركة تعبيرية ترتبط بسؤال المعنى والمقصد، وأن كل تعبير يتغذى من نظرية المقاصد الاجتماعية، فالعمل الفني ينخرط في تشكيل تصورات الجماعة عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها".

و"فؤاد البنا" يكتب تحت عنوان "القوانين العشرة للتميز النحلاوي" فيقول: "وفي هذه المقالة المقتضبة، سنعرّج على جوانب الاستهداء، وسنركز على استنباط عشرة قوانين للتميز النحلاوي، مسطرين إياها بالعسل، ومرتشفين حلاوتها من الشهد النحلاوي".

أما "محمد بن إبراهيم السعيدي" فيكتب مقالاً عن "التأصيل الشرعي في حماية الفكر" يقول فيه: "فكما أن النصوص القرآنية أشادت بأرباب العقول، فقد حرصت على حماية هذا النشاط الذهني من الزلل.. وانحصارُ الحق في الإسلام ليس مقتصرًا على الجانب العقدي، بل يشمل الجانب الفقهي أيضًا".

وبعد، فهذه إشارات مقتضبة إلى بعض مقالات هذا العدد، نأمل أن تعطي القارئ الكريم فكرة أوّلية عنها وعن أخواتها من المقالات الأخرى. هذا، وتخرج حراء مع هذا العدد إلى قرّائها بِلُوجو جديد مع بعض التغييرات الجمالية في التصميم الداخلي، إلى جانب عنوان جديد لموقعها على الإنترنيت الذي أصبح بوّابة شاملة تستوعب مضامين حراء وأنشطتها ومادتها السمعية والبصرية معبِّرة عن أفق حراء من زاوية أوسع، فنرجو أن تتابعونا من بوابة حراء الجديدة.

المحتويات

الروح الباعثة / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
جنوننا المرعب / حراء (ألوان وظلال)	٥
مجتمع الرحمة / د. عائض القرني (قضايا فكرية)	٦
فهم القرآن في ضوء تجدد معارف الإنسان / د. عبد الإله بن مصباح (قضايا فكرية)	٨
دردشة فراشة / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	١٢
تلاميذ مدارس "الخدمة" وقدراتهم المتميزة / د. ناصر أحمد سنه (قضايا فكرية)	١٦
نظرات في مفهوم "القوة" في الإسلام / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية)	٢١
فلسفة الفن والجمال عند فتح الله كولن / د. محمد البشير بن طبة (قضايا فكرية)	٢٦
مجاهيل الكون / محمد هاشم البشير (علوم)	٣٠
علاقة النقد الإسلامي بالتراث والحداثة / د. إسماعيل فاضل المشهداني (أدب)	٣٢
يا نفسُ جِدّي / د. حسن الأمراني (شعر)	٣٥
تربية أطفالنا بين التأديب والتأنيب / خلف أحمد محمود أبو زيد (تربية)	٣٦
الجمال وسؤال المقصد في القرآن الكريم / أ.د. عبد القادر بوعرفة (قضايا فكرية)	٣٨
في تجديد الخطاب الدعوي (٢) / د. عبد الحميد عشاق (قضايا فكرية)	٤٤
القوانين العشرة للتميز النحلاوي / د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)	٤٧
زهرة بين الزهور / حراء (ألوان وظلال)	٥٠
جنون الموت / عبد الله محمد سعيد (أدب)	٥١
التأصيل الشرعي في حماية الفكر / د. محمد بن إبراهيم السعيدي (قضايا فكرية)	٥٣
أزمة المصطلح والدلالة / محمد جمال حليم (قضايا فكرية)	٥٦
الانبعاث الثاني / حراء (ألوان وظلال)	٥٨
الخوف على الأمة / د. سلمان العودة (قضايا فكرية)	٥٩
عندما "الدنيا" تودِّع / حراء (ألوان وظلال)	٦١
محنة الروح مع الإنسان / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	٦٢

فتح الله كولن

الروح الباعثة

أيُّ من المعاني والحقائق ينهض بإنسان هذه الأمة ويمده بالحياة والبقاء؟ إن المعنى الذي كان يسري في عروقه -حتى البارحة- ويحدد وجهته، ويحفظ حيويته، كان ينبعث من عالمه الفكري وعمقه الوجداني، بل إن الميزة الوحيدة التي اشتهر بها -وهي الفاعلية- لم تكن إلا نبعًا يَمتاح من ذلك العمق الجوّاني ذي الأبعاد المتعددة، شأنُه في ذلك شأنُ الزمن في تداخل أبعاده.

إن هذا المعنى منقوش في روح ماضينا بمئات من النماذج الحية، نقشَ الزينة على الحرير بدقة بديعة، وهو الذي ضَمِن لنا أفضل الرجال تنشئة في العلم والحكمة والسلوك عبر التاريخ في كل ساحات الحياة.

إن شهامة صلاح الدين التي أبداها لقلب الأسد "ريتشارد"، ذلك المتجبر الذي لم يكن يرى إلا ذاته، والتي أذهلته وأخرست لسانه، وأجبرته على طأطأة رأسه خجلاً.. وأصالة "ألب أرسلان"[1] وسُموّه الأخلاقي

الذي دفع "رومين ديوجين" إلى الإجهاش بالبكاء شكرًا له وعرفانًا لصنيعه.. ورقيّ "كيليج أرسلان"[٢] وإنسانيته حين منح الأسرى حريتهم عقب قتال بطولي شرس أمام حصن أنطاليا ضد الصليبيين الهَمَج.. تلك المواقف النبيلة كلها، لم تكن سوى انتصارات باسم تلك الروح وذلك المعنى.

وما كانت القوة العظمى التي شحنت جيش محمد الفاتح -أعظم جيش في العالم وأحدثه تقنيًّا آنذاك- بِطاقةٍ جديدة أثناء حصاره أسوار بيزنطة الشاهقة، ومنحته مفاتيح عصره وأقفاله، إلا قوة الروح التي كان يمثلها ربانيون أمثال "آق شمس الدين"[٣]. فلم يكن "الفاتح" ممثل الجبروت المادي المتوحش قط، بل كان رمزًا لتلك الروح السامية، وذلك المعنى العميق الذي تَمثّل في عبقريته العسكرية وحكمته الإدارية. ولو لم يكن كذلك، لما اختلف دخوله إسطنبول عن دخول قيصر روما. لقد دخل العاصمة البيزنطية العريقة بسماحة الروح الطاهرة ﷺ وعفوها، تلك التي فتحت مكة المكرمة لتمنح المهزومين حقوقًا لا تحصى، وتشملهم بنبل فريد.

كيف يمكن أن نفسر -ما لم نستحضر هذه الروح وذلك المعنى- سلوك "ياوُز"[٤] يوم عاد من الديار المصرية فاتحًا متوَّجًا بلقب الخليفة الأوحد ورمز العالم الإسلامي أجمع؟! كانت الجماهير تنتظر قدومه في إسطنبول لتحتفل بالنصر المبين، وكان بعضُ من لا يعرفون تواضعه، يتوقعون منه أن يدخل العاصمة مرورًا تحت أقواس النصر منتشيًا بهتاف الرعية باسمه وتهليلهم بمجده، لكنه أبى إلا أن ينزل في أُسْكُدار بالضفة الآسيوية من إسطنبول، وينتظر حتى ينقضي النهار وينتصف الليل، ويأوي أهل المدينة إلى مضاجعهم، ويطمئن إلى أنهم قد أخلدوا إلى النوم، فيعبر إلى الضفة الأوروبية من العاصمة بهدوء كامل ودون أن يشعر به أحد.

فأكرِم بعَودٍ مظفَّر عن جميع صور الرياء والتباهي جدُّ بعيد! إنه لَعود حميد تُسَرّ به السماوات، وتهلل له الأرواح الطيبة تكريما! أمَا وقد تسامى هؤلاء الأبطال الأماجد على ذواتهم، وعاشوا بهجة ألف نصر ونصر في قلوبهم، فما أهمية أن يهلل أهل الفناء لهم، أو يستقبلوهم بباقات الورود ودقات الطبول، أو يقفوا بين أيديهم تحية وإجلالا؟!

المهمة الكبرى اليوم، أن نساعد أجيالنا على أن تعي ذاتها وتتوحد مع روحها، وننقذها من أسر المادة، ونشحن قلبها بالمثُل العليا والغايات السامية.. آه، ليتنا تمكنا من القيام بهذه المهمة السامية دون خلل أو نقصان.

حراء

في تلك الحقبة من الزمان، يوم كانت تلك الروح نابضة في أجسامنا، جارية في عروقنا، مختلطة بدمائنا، مقيمة عروشها في خلايا أدمغتنا، كنا نغوص في أعماق قلوبنا متجاوزين عمقًا تلو آخر من ناحية، ونسعى إلى تثبيت مكانتنا بين الأمم فيما يتعلق بمصير العالم من ناحية أخرى. آه لتلك الروح الغالية! أكان يخطر ببالنا لحظة أن نتنازل عن ذرة واحدة منها؟ انظروا كيف بهتت وتداعت وتفتتت؟!

لعله يجافي الإنصافَ أن نبحث عن أسباب هذه الفاجعة لدى الأرواح المحتسِبة. تلك التي فتحت مجموعة من البلدان في سفرة واحدة، ثم نأت بنفسها بعيدًا عن تهليل الجماهير باسمها دافنة كبرياءها في تراب أُسْكُدار؛ بل الإنصاف أن نبحث عن أسباب الكارثة لدى أرواح ميتة غامضة الجوهر، متآكلة الشخصية، سَدَنةٍ على أعتاب الكبر، قد استولى عليها التعاظم واستهواها التباهي؛ إن حققت نصرًا صغيرًا بحجم البيضة ضخّمته كي يبدو عظيمًا، وملأت أرجاء الأرض صخبًا وضجيجًا، ودخلت عاصمتها دخول الفراعنة الجبابرة.

أولئك يحملون في أيديهم كأس حياة الأمة بأنفاسهم المُحيية، وهؤلاء أورام خبيثة استقرت في دماغ المجتمع فأصابت أطرافه كلها بالشلل.

أجل، لم يحطّم القيمَ الروحية التي كانت الضمان الأوحد لحيوية الأمة وبقائها بعلمائها ووزرائها ورجال دولتها ورعيتها، إلا روح "الدَّوْشِرْمَة"[٥].. تلك الروح المنحوسة حين أقامت المُراءاةَ مقام المروءة، والغدر

hiragate.com

محلّ الشجاعة، والقوة الغاشمة بديلاً عن الفكر الروحي، والشعوذة موضع الكرامة، والإلحاد والشك مكان الإيمان واليقين، طعنت الأمة في قلبها. وغدت الحشود التي وجدت نفسها في فراغ مظلم، فريسةً لتشاؤم مخيف، ويأس قاتل، وشلل تام. وأضحت الروح في ذلك المجتمع مهيضة الجناح، وبات الوجدان مقفرًا من اللذائذ اللدنية، والقلب مسرحًا لآلاف النزوات النكدة التي تلهث وراء مآرب دنيئة.

في مشهد للحياة رديء متخلف كهذا، نظرت الحشود التي نشأت ونمت في أحضان الخمول والجهل والفوضى محرومة من العشق والتوقد والحماس.. فلم تجد أمامها سوى مجموعة من فناني الحناجر يرفعون عقائرهم بالكلمات القدسية المباركة، لكن بأنفاس لا أثر للروح فيها ولا الربانية مطلقًا، يبتغون من وراء ذلك تجارة دنيوية محضة، فانخدعت بنغماتهم، وحسبتها انتصارًا عظيمًا للمُثُل التي تبنتها والرؤى التي تعلقت بها، فهبّت فرحة مبتهجة تهلل بأسمائهم دون فتور، وتبجّل أفعالهم دون انقطاع، مواصلة نومها العميق.

آه لهؤلاء المشعوذين المحتالين! وَوَا أسفًا على تلك الحشود المسكينة المضلَّلَة المظلومة!

كل ذلك قد وقع ولم يكن بد من وقوعه، لأن المجتمع عندما شعر بضرورة تجديد ذاته، وهمّ بأن يشرع في ذلك، لم يجد أمامه نورًا يهتدي به، ولا مفكرين يأخذون بيده ويبصّرونه بالطريق. كان الغرب حينئذ يجدد ذاته جملة وتفصيلاً، وكان "ديكارت" -رمزُ الفكر الفلسفي الغربي آنذاك- لا يسمي الفكر فكرًا ما لم يكن حرًّا، في حين طُوِيت صفحة التفكر عندنا ووضعت جانبًا منذ زمن بعيد. وبينما كان المفكر الغربي -في تلك الفترة- يغوص في أعماق الأشياء والحوادث، ويحلّق في كتاب الكون بعشق وشوق منقبًا عن المسالك الهادية إلى الخالق العظيم؛ كنا أمة نمرح في أحضان "عهد اللّالا"[٦] غافلين لاهين، بل متباهين بتفشّي ألف زذيلة ورذيلة على أنها ثورة حقيقية كبرى. وبينما كان الجزء الآخر من العالم يمرر الآيات الكونية من موشور الفكر، وينطلق لفتح الأكوان كافة؛ كان المشهد عندنا مزريًا مأساويًّا، حيث تحوّل الانحطاط النفسي والتصحر الروحي إلى دوامة مرعبة تتحدى جميع قيمنا الحيوية وتهددها بالانقراض.

أما إنساننا المسكين، فقد كان في مأزق يستدعي الإشفاق عليه حقًّا. كيف لا، وخصومه قد استفاقوا من رقدتهم وانقضّوا عليه كالغيلان، وخِلاّنه قد غرقوا في لهو ولعب يحاكي أساطير ألف ليلة ولية. ومن ثم كان في هذا المناخ القاتم، يبتعد عن ذاته شيئًا فشيئًا كل يوم، ويدفن قيمه الروحية واحدة تلو أخرى في مقبرة الماضي مهيلاً عليها التراب، يدمر ضمانه الوحيد لبقائه في هذه الحياة.

عند حلول تلك الكوارث، لم يكن ثمة أحد من أبطالنا الذين عرفناهم بانتصاراتهم الروحية.. أولئك الذين كانوا يترصدون أدنى مشاعر الكبر والعجب إذا استثارتها في أرواحهم إنجازات كبرى وانتصارات باهرة جعلت مقاليد العالم في أيديهم، فيتصدّون لها، ويدفنونها في ضفة الأناضول داخلين عاصمة الدولة بتواضع منقطع النظير[٧]؛ ولا أولئك الذين يأخذون بتلابيب أنفسهم عقب انتصار عظيم، ينهرونها بشدة، ويفترشون الأرض بدهليز مظلم يقضون ليلتهم فيه[٨]؛ ولا أولئك الذين يذوبون خجلاً ويتصببون عرقًا إزاء تهليل الشعب بأسمائهم وتمجيده لانتصاراتهم؛ بل كان بدلاً عنهم أفراد من المرتزقة ذوي حسابات آنية مؤقتة، وأرواح مراهِقة وقعت في أسر رغباتها الدنيئة، وقلوب ضعيفة لم تذق في حياتها متعة العيش من أجل الآخرين.

إن الأجيال التي ما فتئت تبحث عن ذاتها منذ ذلك اليوم، خُدعت مرة تلو أخرى، وضُلّلت مرات ومرات. لم يبق أذى إلا ذاقته، ولا مرارة إلا تجرعتها. ولو لم تمتد يد العناية تنجدها وتدلها على طريق الانبعاث في البعد الروحي والبعد الإيماني والأخلاقي، لضاعت ضياعًا مؤكدًا، وكانت اليوم أثرًا بعد عين. أجل، لضاعت بدولتها، ومؤسساتها التربوية، ومنظومتها الأخلاقية والحقوقية، ورؤيتها العلمية والفنية.

فالمهمة الكبرى اليوم، أن نساعدها على أن تعي ذاتها وتتوحد مع روحها، وننقذها من أسر المادة، ونشحن

hiragate.com

قلبها بالمثُل العليا والغايات السامية. آه، ليتنا تمكنا من القيام بهذه المهمة السامية دون خلل أو نقصان! ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٥٠ (مارس ١٩٨٣).

الهوامش

(١) السلطان الثاني للدولة السلجوكية العظمى (١٠٢٩-١٠٧٢م)، وقد انتصر على الإمبراطور الروماني "رومين ديوجين" في معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١، ما فتح أبواب الأناضول للأتراك. ووقع رومين ديوجين أسيرًا في المعركة، فأحسن السلطان معاملته، وأطلق سراحه معززًا مكرمًا. (المترجم)

(٢) وهو السلطان السلجوكي العظيم (١١١٣-١١٩٢م). (المترجم)

(٣) وهو شيخ السلطان محمد الفاتح، وكان من العلماء المحققين والعارفين الربانيين، ويعتبر الفاتحَ الروحي لإسطنبول. (المترجم)

(٤) وهو السلطان العثماني سليم الأول الذي حكم الدولة العثمانية من ١٥١٢ إلى ١٥٢٠، ولقّب بـ"ياوُز"، ومعناه القوي الشجاع. (المترجم)

(٥) وهي الممارسة التي بموجبها كانت الدولة العثمانية تجنّد أولادًا من عائلات مسيحية، يتم تحويلهم بعد ذلك إلى الإسلام ويدرّبون كجنود إنكشارية. تنبع هذه الممارسة من الرغبة بإنشاء طبقة عليا من المحاربين تكون موالية للسلطان. سار هذا التقليد قرونًا طويلة دون أي إشكال، لكنه في القرون الأخيرة أصبح إشكالاً كبيرًا وسبّب للدولة العثمانية كوارث جسيمة. يستخدم فضيلة الأستاذ عبارة "روح الدوشرمة" للإشارة إلى حالة الابتعاد عن الجذور الثقافية الأصيلة، والسعي وراء كل ما هو محدث ولو ناقض ثقافتنا، واستيراد كل ما هو أجنبي دون طلب تأشيرة، وإقامة الزائف الدخيل مكان الحقيقي الأصيل. (المترجم)

(٦) وهي الفترة من ١٧١٨ إلى ١٧٣٠ من الدولة العثمانية، كانت فيها زهرة اللاله أو التوليب أو الخزامى رمز الفترة، حيث ساد السلام بعد توقيع معاهدة مع الإمبراطورية النمساوية، ما أتاح المجال لإيلاء مزيد من الاهتمام بالفنون، وازدهرت زراعة أزهار التوليب بشكل كبير في إسطنبول، وساد في المدينة الإسراف واللهو والمجون، وانتهت الفترة بثورة الإنشكاريين حيث خلعوا السلطان أحمد الثالث، ونصبوا السلطان محمود الأول مكانه. (المترجم)

(٧) إشارة إلى السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠). (المترجم)

(٨) المقصود السلطان سليمان القانوني الذي حكم الدولة العثمانية من ١٥٢٠ إلى ١٥٦٦، وهو أطول مَن حكم الدولة العثمانية. (المترجم)

جنوننا المرعب

إنسانيين كُنَّا؛
نعشق الجمال، وبه شعرًا نقول..
وفجأةً، سهونا،
وعن وعينا غبنا، وجنونًا جُنِنَّا،
وبمعاول الهدم كُلَّ شيء هدمنا..
أَتُرَانا نصحوا، وإلى فطرتنا نعود،
وفي كنفها نحيا من جديد؟!

* * *

د. عائض القرني*

يا صاحب الفطرة النقية! كم من جليل الأعمال أتيتَ، زرعتَ وسقيتَ، ثم جنيتَ.. ها حديقةُ أزهارٍ تحيط بك، وتَنُثّ من حولك عطرًا وجمالاً.. فلا يعكِّرنّ بعضُ الأشواك صفو هنائك ونشوة انتصارك.. فالشوك إذا وخَزك فمن سوء تربيته وفساد تربته.

الموازين

مجتمع الرحمة

من يطالع نصوص الشريعة يجد أن من أعظم مقاصدها؛ الرحمة والتواصل والتعارف. فالقرآن والسنة فيهما الدعوة الصريحة إلى نبذ الفرقة والشقاق والبغضاء والشحناء وذم الاختلاف والتفرق، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران:١٠٥)، وقوله ﷺ: "لا تختلفوا فتختلفَ قلوبُكم" (رواه أبو داود)، وفي الوحي المقدس مدح الرحمة واللين والرفق، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران:١٥٩)، وقول الرسول ﷺ: "الراحمون يرحمهم الرحمن" (رواه أبو داود).

ولكنني أقول بكل صراحة، إن من ينظر إلى مجتمعنا، يجد أننا قساة مع بعضنا، إذا خالفَنا شخصٌ أغلظنا عليه، وجُرنا في الحكم، وقسونا في التصرف.. وإذا لم يعجبنا قولٌ أو رأي؛ هاجمْنا صاحبَه بلا حدود، وكأنه يُطلَب من الناس أن يوافقونا في كل شيء، وأن يلتمسوا رضانا، وأن يجاملونا، وأن يجبروا خواطرنا.. وكأن

أفكارنا وحي منزل، وكأن الحق يدور معنا حيثما درنا.

والحقيقة أن رحمة الله أوسع من ذلك، وأن الإسلام أكبر من نفوسنا الضيقة، وأن في الشريعة من جسور التواصل والتقارب ما يفوق الوصف.. إننا رحماء مع أنفسنا، طيبون مع ذواتنا، فنحن نزكي أعمالنا، ونعتذر لأخطائنا، وندافع عن تصرفاتنا.. لكننا مع الغير غلاظ شداد، نبكّتهم ونحاسبهم على أخطائهم، ونلومهم بعنف على تصرفاتهم، وأحيانًا لا نقبل توبتهم، ولا نرحب باعتذارهم.

إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يجلس معه الصحابي ابن النعيمان الذي شرب الخمر مرارًا، فلما أُتِي به ليقام عليه الحد فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: "لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إنه يحب الله ورسوله" (رواه البخاري). ولكننا -للأسف- أحيانًا نعين المذنب على ذنبه، ونساعد المخطئ على خطئه بهوج تصرفاتنا وعوج طريقتنا.. فنحن في الغالب لا نترك خط الرجعة لمن أذنب أو أخطأ في حقنا، بل تجدنا أحيانًا نقوم بحملة شعواء على من قصّر من المسلمين تشهيرًا وتهديدًا وتجريحًا وتشويهًا، وكأننا نحن ملائكة مطهرون أو أنبياء معصومون.

لماذا لا نعترف ببشريتنا ونقصنا وعجزنا، ونعين من أخطأ، ونساعد من زل، ونأخذ بيد من سقط، ونلتمس العذر لمن أساء إلينا، ليعود الجميع إلى الجادة؟ لقد قرأت سيرة الرسول ﷺ في جانب العفو والحلم والصفح والرحمة، فذُهلت لعظمة هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، وبحق قال له ربه ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٤).

إن بعضنا إذا خاصم أحدًا، لا يترك موضعًا للصلح ولا فرصة للحوار ولا إمكانية للتقارب، بل يقطّع كل حبال الرحمة، ويهدم كل جسور التواصل والتسامح.. أين مجتمع الرحمة منا؟ وأنت إذا خالفت البعض في مسائل يجوز فيها الاجتهاد وتُقبل فيها وجهات النظر؛ شنّعوا عليك، وصبّوا عليك جام غضبهم، وكأن العناية الإلهية ترافقهم في كل حركة وسكنة؟ من الذي جعل العصمة من نصيبكم، والصواب دائمًا حليفكم، والتوفيق

من يطالع نصوص الشريعة يجد أن من أعظم مقاصدها؛ الرحمة والتواصل والتعارف. فالقرآن والسنة فيهما الدعوة الصريحة إلى نبذ الفرقة والشقاق والبغضاء والشحناء وذم الاختلاف والتفرق.. وفي الوحي المقدس مدح الرحمة واللين والرفق.

حراء

أبدًا معكم؟ ولكنه منطق العجرفة والعلو والاستكبار الذي ندد به القرآن، وهاجمه الوحي بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾(المائدة:١٨). لماذا نحتكر الحقيقة وحدنا وندعي الوصاية على الدين؟ ولماذا لا نتكلم على أننا عبيد خُلقنا من التراب ونُدفن في التراب، وعلى أن أبناء المجتمع إخوان لنا، بيننا وبينهم إنسانية ودين وذمة ومعايشة ومواطنة ومصير مشترك؟

إن بعضنا عنده سهام كثيرة في جعبته، كل يوم يطلق سهمًا على من خالفه، فلا يسلم أحد من سهامه الطائشة، ولسان حاله ينادي: من ينازل؟ من يبارز؟ من يبايعني على الموت؟ يا خيل الله اركبي، رويدًا رويدًا يا بشر، مهلاً مهلاً يا ناس، السكينة السكينة يا عباد الله، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرفق الرفق أيها الناس.. كلنا نطلب رحمة الله.. الله وحده هو الذي سوف يحاسبنا، نحن كلنا ضعفاء تحت قدرته، مساكين تحت جبروت الله، فقراء إلى ما عند الله، لا نملك ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.. أتينا من عالم الطين وسوف نُدس في الطين. فليحترم بعضنا بعضًا، ولْيرحم بعضنا بعضًا؛ فإن الحياة قصيرة، والمشوار قريب، والأيام قليلة، والفراق حاصل.. فلنترك لنا ذكرى جميلة، وثناءً حسنًا، وأثرًا نافعًا.. علنا نظفر بدعوة صالحة من قلب خاشع ولسان صادق، إذا طُرحنا حفاة عراة معدمين في القبور. ■

(*) عالم ومفكر / المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

د. عبد الإله بن مصباح*

فهم القرآن
في ضوء تجدد معارف الإنسان

هل صحيح أن العلم البشري -نظرًا لنسبية تصوراته وتغير معطياته- لا يصلح لتفسير القرآن؟ وإلا فكيف يمكن له -في ضوء تجدد معارفه- أن يُسهم في توسيع الفهم الصحيح لمعاني الآيات، ومن خلالها في تدعيم علاقة التفاعل القائمة بين الفكر والذكر دون المساس بالقواعد الشرعية والثوابت الفكرية؟

لا غرو أن القرآن الكريم هو كتاب معجز لا يمكن تفسير كلامه التفسير المطلق، لا بالعلم ولا بالبلاغة ولا بالمنطق ولا بالبيان ولا بأي إدراك معرفي بشري، اللهم إلا بصحيح الإسناد المتصل إلى رسول الله ﷺ لأنه كان موصولاً بالوحي، وما عدا ذلك -مهما كان فيه من التنوير- لا يمكن وضعه إلا في موضع التفسير النسبي، نسبة إلى مستوى الإدراك المعرفي للمفسر الذي تصوغه ظروف ومعطيات الزمان الذي كان فيه.

أما ما يمكن أن يقدمه العلم البشري بخصوص فهم القرآن، فليس بالضرورة تفسيرًا علميًّا بقدر ما هو توسيع في الفهم ببيان ما تحمله آياته من إشارات علمية وأسرار لم تكن لتظهر لولا استجلاء العقل لها، واستظهاره في كل زمان لمدى التوافق الباهر بين حقائق العلم التي يصل إليها الإنسان، ودلالاتها في الإشارات التي جاء بها القرآن. وكأن لسان حال العلم البشري -بتطوره العقلي وتقدمه المعرفي- يقول إن تلك الإشارات الكونية التي تنزّل بها القرآن، والتي فُسرت في ذلك الزمان بمعطيات علومه، كانت منذ ذلك العهد تحفل بأسرار ما كشفت عنه علوم هذا الزمان، إلا أنها كانت في دائرة الغيب النسبي نظرًا لاحتجاب الحقائق العلمية آنذاك، فأصبحت في الزمان الذي نحن فيه نظرًا لرفع الحجُب في دائرة عالم الشهادة، وذلك سر إعجاز هذا الكتاب.

القرآن يستوعب كل اكتشاف علمي

فإعجاز القرآن كما ذكرته مصادر كثيرة -وأذكر منها كتاب "الشفا"- أدركه الإنسان على أوجه متدرجة مع تطور مداركه المعرفية عبر الزمان. فأول ما أبهر الإنسانَ في القرآن إعجازُه البلاغي، وهو المتعلق بفصاحة

كلامه ودقة بيانه نظرًا لما كان عليه لسان العرب آنذاك من بلاغة وفصاحة. ثم انبهر الشعراء بإعجاز القرآن البنائي، حيث أبهرهم بروعة نظْمه وإحكام وزنه ورقة أسلوبه. ثم ما لبث أن التفت الإنسان إلى إعجاز القرآن الإخباري، حيث انبهر أهل الكتاب لوجه إخباره بأسرار كتبهم وأخبارهم وأخبار من قبلهم، وبقصص ما كان من القرون السالفة منذ بدء الخلق إلى الأمم البائدة إلى الحضارات الهالكة، مما بقي أو لم يبق منه أثر، بل وحتى بقصص أشخاص ذُكرت أسماؤهم ولم يبق من آثارهم شيء. ثم وقعت أحداث هامة ووقائع طبعت التاريخ فجاء وقوعها على تمام ما أخبر به القرآن، فانبهر الناس لإعجازه الغيبي وإخباره بمغيبات لم تكن وقعت بعدُ، ثم حدثت كما أخبر بها القرآن؛ كفتح مكة، وغلبة الروم، وباقي الفتوحات التي عرفها المسلمون. كما تعهد سبحانه بإظهار آياته في الآفاق وفي الأنفس، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣).

وجاء زمن العلم والتكنولوجيا والذرة وغزو الفضاء، ليجد الإنسان نفسه أمام ظواهر علمية بالغة التعقيد، لا يوجد كتاب أحكمُ في الإشارة إليها، ولا أدق في التعبير عنها من القرآن المجيد، بحيث كلما صاح العلم بجديد مكتشفاته، إلا ووجد في القرآن ما يشير إلى دلالاته، بل ووجد الباحثون ما وصفوه وصنفوه في بحوثهم من تلك الظواهر قد استوعبه القرآن، واختزله في إشارات غاية في الإيجاز والإعجاز، وبالغة في الدقة ومحكمة في التركيز.

فالإنسان لم يفهم دلالة كثير من الإشارات الكونية الواردة في القرآن، إلا من بعد ما جاءت الاكتشافات العلمية مبيّنة تفاصيلها؛ بحيث تكلم كتاب الله ﷻ عن "فتق الرتق" عند بدء خلق السماوات والأرض، وعن "بناء السماء" وجعلِها سقفًا محفوظًا، وعن ظاهرة "التوسع" فيها، وعن وجود "الحبك" فيها، وعن "تزيين السماء الدنيا بالمصابيح"، وما إلى ذلك مما أقرّته أحدث الدراسات العلمية لأكبر وكالات الاستكشافات الفضائية.. بل واستعملت في تقاريرها نفس المصطلحات التي وردت عن تلك الظواهر في

العلم هو في الحقيقة حلقة مغلقة كلما دار الإنسان في فلكها بعقله متفكرًا، أرجعته شوارق أنوارها إلى القرآن متذكرًا، وكلما جال في آفاق القرآن بوجدانه ذاكرًا، أحاله ذكره على الأكوان متفكرًا.

حراء

القرآن. وهي المصطلحات التي لم يكن للإنسان أن يفهم معانيها لولا تبيان هذه البحوث العلمية لها؛ بحيث لم يتبين الإنسان -مثلاً- مغزى قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾(الشمس:٤)، والكلام عن الشمس، إلا من بعد ما غزا الفضاءَ، ورأى الشمس كنقطة ضوء يغشاها ظلام الكون الحالك. كما أنه حار -مثلاً- في فهم معنى قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾(الطور:٦)، علمًا بأن الماء والنار ضدّان لا يلتقيان، فكيف بالبحر أن يُسجر بالنار! إلا من بعد أن صورت له الرحلات الاستكشافية لأعماق البحار، قيعانَ المحيطات وهي مشتعلة بفوران البراكين، التي تتدفق بالحمم النارية عند أحزمة الصدع الفاصلة بين قطع سطح الأرض المتجاورات. هنالك تبيَّن له معنى قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾(الطارق:١٢)، وقوله كذلك: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾(الرعد:٤).. فتجلى له من خلال ذلك، مشهدُ تسطيح الأرض كآيات دالة على إعجاز هذا الكتاب الذي أورد الاستفسار عنه منذ زمن التنزيل في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(الغاشية:١٧-٢٠)، وكأن ذلك الاستفسار كان موجهًا لأهل هذا الزمان.

وجاءت الدراسات الجيوفيزيائية -الجد معقدة- بتفاصيل ما لم يتمكن الإنسان من إدراكه، لتُجسّد لنا الجبال أوتادًا، تمامًا كما ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾(النبأ:٦-٧).. تلك الإشارة التي نزلت في مجتمع بدائي، وفي زمن لم تكن لأهله من مقومات العلوم، حتى أبجدياتها، مما يعني أن تلك الإشارات القرآنية ومثيلاتها، كانت منذ ذلك العهد

hiragate.com

-وما تزال- مجالات بحث مفتوحة لمعطيات كل زمان، لا تنقطع عجائبها ولا تنقضي غاياتها، بل تتجلى على كل زمان بقسط معلوم من أسرارها. فهل بعد كل هذه التجليات العلمية يستطيع أحدٌ اليومَ، أن يلجم العقل ويمنع العلم من الإدلاء بإسهامه في توسيع فهم آي القرآن، وتجديد معانيها بقواطع الحجة ودلائل البرهان؟

تجديد الفهم لمعاني الآيات القرآنية

لا شك أن الحقائق العلمية التي وصل إليها العقل البشري، تُشكّل أرضية صلبة وأساسًا قويًّا في بناء الفهم السليم للقرآن الكريم، بل وحتى النظرية العلمية لا يمكن الاستهانة بها، لأنها منطلق الأساس في بناء الحقيقة العلمية. والقرآن، لمّا فتح باب البحث أمام الإنسان أوّل ما دعاه إليه، النظر: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(يونس:١٠١)، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾(العنكبوت:٢٠)، في إشارة إلى أن النظرية التي هي أوّل ما ينتجه البحث المتمخض عن خطوات الملاحظة والفرضية والتجربة، ما تلبث أن ترقى إلى مستوى الحقيقة بعد إثباتها بالبراهين ووقوع الإجماع العلمي عليها. فقانون الجاذبية، أول ما تم اكتشافه -وكان ذلك على يد إسحاق نيوتن، علمًا بأن ابن طفيل من خلال نظرته التكاملية بين العقل والوحي، قد سبقه إليه بقرون- كان مجرد نظرية منبثقة من ملاحظته سقوط تفاحة من شجرة، ثم ما لبث أن ارتقى بإجماع أهل الاختصاص إلى مستوى الحقيقة العلمية، فصار قانونًا معتمدًا لكل الدراسات الفيزيائية المهتمة بمجالات القوى. والقرآن سبق الإشارة إليه منذ زمن الوحي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾(المرسلات:٢٥-٢٦)؛ حيث تعني كلمة "كِفَاتًا" كما جاء في التفاسير، ضامة وحاضنة لكل ما عليها، أي كل ما على الأرض منجذب إليها.

مما يُظهر أن الحقائق العلمية هي أدوات رزينة، تمكّن الدارس لكتاب الله من تجديد الفهم لمعاني الآيات بتجدد المكتسبات العقلية وتوسّع التجليات الفكرية. ويُظهر من جهة أخرى، أن القرآن الكريم هو كتاب علم لكن ليس دليلاً علميًّا، لأنه بدعوته إلى البحث والنظر، يكون فتح لنا باب الفهم الذي يشغّل العقل. ولو أنه شمل الإجابة عن جميع الأسئلة العلمية، لكان سد باب العقل وفتح باب النقل، وهو ما لا يتفق مع دعواته المتكررة التي جاءت في صيغ ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾، ومع حثه الإنسان على البحث والتنقيب في أسرار السماوات والأرض، كما جاء ذلك مقررًا في كثير من الآيات.

فابن كثير الذي يعتبر مرجعًا في تفسير القرآن، فسّر كثيرًا من الآيات الكونية باجتهادات عقلية وتصورات فكرية. ولا أدل على ذلك من تفسيره لقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ﴾(السجدة:٢٧)؛ حيث ذكر -رحمه الله- أن أرض مصر مُرادة في هذه الآية، لأنها كما قال: "أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطرًا لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء وذلك الطين -أيضًا- لينبت الزرع فيه. فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم". هذا التفسير كما يظهر من مضامينه، يدل على أن المفسر استند إلى معطيات علمية منبثقة من اجتهاد عقلي متجدد، لأن فهم أثر الماء على مختلف هذه الجوانب، يحتاج إلى معرفة علمية واسعة. كما أن الماء ليس وحده الأساس في إنبات الزرع، بل الطين أيضًا -كما جاء في التفسير- بما يحمله من مواد معدنية مخصِّبة مجلوبة من تعرية الأراضي التي يمر عليها الماء. وهو ما يثبته العلم حاليًّا بعدما تكشّف منبع النيل من بحيرة "فيكتوريا" المحاطة بأعلى القمم البركانية لوسط أفريقيا التي تُمد النيل بشتى أنواع المعادن. مما يُظهر أن المفسر لم ينحصر علمه فيما جاء به النقل فقط، بل تعدّاه إلى استعمال العقل، والبحث في علوم زمانه على اختلاف أنواعها.

تفسير القرآن بالقرآن

وهذا نجده كان السائدَ في معظم القرون المشرقة من

hiragate.com

تاريخ الأمة، حيث كان تفسير القرآن يرمي -بالإضافة لإقرار المأثور- إلى بيان معاني الآيات بتوظيف مدارك العصر العلمية، مما لا يتعارض مع القواعد الشرعية. فالآيات المكية التي تنزلت متضمنة ذكرَ الخلق وأطواره، والكون وأسراره، والحياة وحقيقتها، والأرض ومكوّناتها، والبحار ومكنوناتها، فرضت على العقل التحرر من رواسب الجاهلية وتصوراتها الخرافية، ودفعت به في اتجاه توسيع المدارك العلمية قصدَ تأسيس فكر علمي قادر على فهم القرآن فهمًا يتناسب ومستجدات الزمان.

فكان تفسير القرآن بالقرآن، حيث فهِم الناس كثيرًا من الظواهر العلمية بالقرآن، وفسّروا كثيرًا من الآيات من منطلق ما فَتَح اللهُ عليهم بالقرآن، فأشرقت أنوار المعارف في قلوبهم بسلامة الفطرة، وتلاقى عندهم العقل مع النقل، بحيث -ورغم احتجاب معظم الحقائق العلمية في تلك القرون- لم يته المفسّرون في فهمهم للآيات، بل توافقت تفاسيرهم قياسًا على ما رأوا من المخلوقات والظواهر، وما وصلهم من أخبار الوحي مع كثير مما جاءت به علوم هذا العصر، لا لشيء إلا لكون القرآن هو نفسه يعطي الإنسانَ المفاتح الضرورية لفهمه، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩)، إذ يُحدث تدبّرُ آياته تفتّقًا للعقل، يجعله يندفع بتلهف للبحث في معانيها. وذلك ما تعهّد به ربنا الكريم في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(القيامة:١٨-١٩).

أما اليوم وقد رُفعت عن كثير من الحقائق الحجبُ، وانجلت عن مفاهيمها السحبُ، بات لزامًا علينا أن نزداد فهمًا للقرآن بأن نقرأه قراءة معنى لا قراءة لفظ، لأن اللفظ ميّت مع الزمان، ولكن المعنى حي متجلّ مع تجدد علم الإنسان؛ وأن نقرأه بعيون الحاضر لا بعيون الماضي، محاولين من خلال ذلك ألا نحصر معانيه في زاوية أسبابٍ نراها ارتبط نزول الآيات بها وقد لا تكون إلا من قبيل الملابسات التي أحاطت بجوانبها. فذلك يحصر آيات القرآن بين سطور التاريخ، وهو ما لا يتفق مع إعجازه الذي لا يحد بزمان ولا بمكان؛ وأن نستشعر قوته على استنهاض العقل، ملتمسين من خلال ذلك الوصول إلى المعنى الذي أراده الله، ذلك المعنى الذي لا تكتمل حقيقته إلا بتجميع الدلالات من متفرق الآيات، كشأن الصورة المشتتة أجزاؤها في مواضع متفرقة، لا بد لكي نعيد تشكيلها على وجهها الحقيقي، من أن نجمع أجزاءها كلا في موضعه المنسجم مع الآخر والمكمل له. فالله تعالى لمّا فتح باب الفهم للإنسان، أراد من خلال ذلك أن يبيّن له أن هذا الكتاب الذي هو معجزة كل زمان، لا تنقطع أسراره مهما سبر العلمُ أغوار الأكوان، وأن ذلك الكون الذي هو دليل الإنسان، إنما جعله سبحانه مرجعًا تجريبيًّا له، لعله يصل من خلاله إلى فهم مضامين القرآن.

وهذا ما يجب أن يستحضره كل متطلع بعلم إلى فهم القرآن، لأن العلم هو في الحقيقة حلقة مغلقة كلما دار الإنسان في فلكها بعقله متفكرًا، أرجعتْه شوارق أنوارها إلى القرآن متذكرًا، وكلما جال في آفاق القرآن بوجدانه ذاكرًا، أحاله ذكره على الأكوان متفكرًا. فكان ذلك دليلاً له على أن هذا القرآن الذي فُصّلت آياته محْكماتٍ، يستدعي فهمُه سبرَ أغوار الأكوان، وأن هذا الكون الذي خلقه الله ﷻ محكمَ البناء متناسقَ العلل، إنما جعله سبحانه مرجعًا تجريبيًّا للإنسان، لعله يستدل به على تصوراته الفكرية ومفاهيمه العلمية، فيؤسس على ضوئها النماذج التفسيرية، والأنساق البيانية الموصلة إلى فهم المعنى الذي أراده الله ﷻ من القرآن، لا المعنى الذي يريده الإنسان.

ومن هنا يمكن للبحث العلمي أن يسهم في توسيع فهم كتاب الله ﷻ، ليس من باب الخوض فيما جاء به السلف نسْخًا أو تعرّضًا، ولكن من باب تحديث ذلك الموروث فهمًا وتجددًا، لأن المسلم في خضم الجدل القائم في هذا الزمان بين دعاة العقل وأهل النقل، وفي دوامة ما يعيشه العالم اليوم من تفجر للمعلومات وتصادم بين الأفكار والمعتقدات، لا يمكن له أن يجد موقعه للدعوة إلى الله ﷻ إلا من منبر فكر عقلاني متنوّر بمستجدات العصر. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

hiragate.com

أ.د. عرفان يلماز*

دردشة فراشة

مرحبًا عزيزي الإنسان.. أنا الفراشة. أشكرك الشكر الجزيل أن منحتني فرصة التحدث إليك وتقديم عجائب خلقي وبديع صنعي لك. فكما تمرّ أنت من مراحل وتقلبات أثناء خلقك ومجيئك إلى هذه الحياة، فأنا الفراشة أيضًا أمرّ بتقلبات تشبه تقلباتك هذه، ولكن في أبعاد مختلفة؛ إن الكائنات الدقيقة الطويلة ذوات الأرجل العديدة، والتي يظن معظمكم أنها حيوانات مختلفة وتسمونها "يرقة"، ما هي إلا أشكال لنا في محطة من المحطات التي نمر بها.

أعني أن كل المراحل الجنينية التي تمرّ بها -عزيزي الإنسان- في رَحِم أمك، أمرُّ بها أنا أيضًا في البُويضة التي تضعها أمي. ولا ينتهي تحولي بعد أن أخرج من البيضة على شكل يرقة دقيقة طويلةٍ، بل أدخل من جديدٍ الشرنقةَ التي أنسُجها بنفسي، وكأني أدخل في نفق زمني من جديد. فأمكث في الشرنقة مدةً في حالةٍ تُشْبه النوم ولكنها ليست نومًا، بل أتحوّل في هذه المرحلة -بعملية

غريبة وذات أسرار غامضة تسمى "التحوّل" (Metamorphosis)- إلى فراشة، حيث أختلف تمامًا عن شكلي السابق والذي كنت فيه يرقة.

وفي أيام الربيع حين يبدأ الجو بالدفء، ترى أنواعًا منّا متعددةَ الألوان والنقوش، تحلّق في الهواء متدللة، وتتنقّل من مكان إلى آخر.. كل منّا يطير ويَحطّ من زهرة إلى أخرى بأجنحتها المصبوغة بشتى أنواع الزخارف والألوان والتي رسمتْها فرشاةُ رسام بارع.

نعم، إنه لا بد من أن هناك مهندسًا ذا قدرة لانهائية رَسَم شكل أجنحتي الأربعة وفق حسابات الديناميكا الهوائية، وغطاها بريش ملونة مجهرية الحجم، ونسَّق بينها أكمل تنسيق.

فبالطبع ليس هناك من يستطيع أن يفعل مثل هذا إلا ربي الذي خلق الكائنات بقدرته اللامتناهية.

وبفضل ما على أجنحتي من التصاميم البارعة والألوان الزاهية، أصبحتُ حيوانًا ذا قيمة عالية يجمع الهُواة أصنافَها، ويشكّلون منها مجموعات على غرار الطوابع. فكما تلاحظ، قد يصبح الجمال أيضًا وَبالاً على صاحبه، فلو كنت قبيحة الشكل لمَا جمع الهواةُ مني أشكالاً كما يجمعون الطوابع! والأغرب من ذلك، هو أنه توجد لي بورصة على مستوى العالم، تباع وتُشترى الأنماط الغريبة النادرة مني مقابلَ مبالغ مالية كبيرة مثل المجوهرات الثمينة. وهذا الوضع أدى إلى ازدياد أعدادِ مَن يبيعوننا، مما سبَّب في تناقص أعداد جيل بعض أنواعنا.

مئات الألوف من الأصناف

إننا مجموعة من الحشرات التي تزيد أصنافها على مئة ألف، ولذلك لم يتم تسجيل كل أنواعنا إلى الآن، ولربما يوجد في أعماق غابات الأمازون بعض الأصناف لم تُكتشَف بعدُ.

وحتى تستمرَّ أجيالنا، تَبِيض الإناث من مختلف أنواعنا بنِسَب مختلفة؛ ففي حين تبيض الأنثى من الصنف الذي له أعداء كُثُر حوالي ألف بيضة، تبيض الأقل أعداءً -أو التي ظروفُ حمايتها أحسنُ- حوالي خمسين بيضة. ولا يمكن تدبير مثل هذه الأمور، إلا بعلمِ وقدرةِ ربنا الذي هو أعلم بأوضاعنا جميعًا. فلا يتكاثرَ أيُّ نوع منّا بطريقة عشوائية ولا يستولي على البيئة.

ومما يسهّل عملية التكاثر والتقاء الذكر بالأنثى، أنه يوجد لكل صنف منا لون خاص وتصميم خاص ورائحة تميزه عن الأصناف الأخرى، وهذا يمنع التباس الذكر والأنثى من بين الأصناف المختلفة.

لا إسراف في الطبيعة على الإطلاق، ولذلك نلاحظ أن أول غذاء للدودة (اليرقة) هو قشرةُ البيض الذي تخرج هي منها، فلها قيمة غذائية عالية، بل إن هناك من اليرقات ما إذا لم تأكل من هذه القشرة، لن تستطيع مواصلة نموها في المراحل المقبلة. فالقشرة مهما بدت وكأنها صغيرة تافهة جامدة، لكنها تحتوي على عناصر خاصة ذات أهمية بالنسبة للنمو إلى هذا الحد.

ويرقاتي التي تخرج من البيض، ليس لديها أيَّة معلومات عن هذا العالَم، لكنها بسَوْقٍ وتوجيهٍ إلهيّ، تَعرف أوراق النبات التي تكون لها غذاء فتبدأ بتناولها، علمًا بأني أضع بيضي قريبًا من مصادر الغذاء حتى لا تتعب يرقاتي كثيرًا.

شفاه يرقاتي من الأعضاء التي لها حاسةُ لمسٍ شديدة؛ فبمجرد ملامستها لأية مادة، تُدرِك هل هي سامة ومضرة أو مفيدة. فإذا أكلت السامةَ، فإنها لا تتضرر بسمومها، بل تجمعها في جسمها بحيث تضفي هذه السمومُ عليها طعمًا يجعل من المستحيل لأي حيوان آخر أن يصيدها أو يأكلها. أفليس من البديع أن تتصرف اليرقة التي ليس لديها خبرة بالكيمياء الحيوية، وكأنها خبيرة كيمياء.

ومن جانب آخر أُعطي ليرقاتِ كثيرٍ من أنواعنا، لباسُ تمويه يُناسِب البيئاتِ والظروفَ المحيطة بها. فكيف تستطيع اليرقة العاجزة الضعيفة التي ليس لها عقل ولا علم ولا قدرة، أن تفصّل لأنفسها لباسًا تُناسب المكان الذي تعيش فيه، من حيث اللون والنقش، وكأنها التقطت له صورة مسبقة؟! وكيف تنهض بهذه المهمة؟! هل فكرتم في ذلك؟

وحينما تنسج يرقتي حولها شرنقة وتنزوي فيها

hiragate.com

لتدخل مرحلة التحول، لا تدرك أنها سترجع إلى الدنيا وهي على غير حالتها السابقة، وهذا يُشْبِه حال الجنين الذي لا يتذكر المراحل التي مر بها وهو في بطن أمه. فتبدأ يرقاتي بالتحول شيئًا فشيئًا أثناء عزلتها في الشرنقة في حالة تشْبه النوم -ولكن ليس نومًا بتاتًا- وفي نهايةِ مرحلةٍ خارقة تُبهِر كل أحد، تتحول الدودة -التي كانت تدبُّ على الأوراق- إلى فراشة تحلق في الهواء. فلا يمكن تفسير مثل هذه الظاهرة بالتطور، ولا بالطفرة الإحيائية، ولا بالمصادفة.. فتحوُّل اليرقة بعد مرورها بمراحل معينة إلى فراشة طائرة، واستمرارُ هذه العملية منذ آلاف السنين على مر الأجيال، يشير إلى صاحب القدرة اللامتناهية.

التمويه في مرحلة الخادرة

إنكم تسمونني في الفترة الانتقالية التي أمرّ بها -وأنا بلا حراك وفي حالة تشْبه النوم بالخادرة (Pupa)- وأنا في هذه الحالة، لا أستطيع الهروب، ولذلك يكتسب التمويهُ بالنسبة لي مزيدًا من الأهمية. وبالفعل، فربي الذي يعلم هذا، يمنحنا في هذه المرحلة قدرة مثالية على التمويه. وكما تلاحظ -عزيزي الإنسان- في بعض الصور أيضًا، فإني حينما أكون على الغصن أو الورق الجافَّين، يراني الرائي وكأني قطعة عود جاف، بحيث إن كثيرًا منكم إذا لم يمعن النظر -أو لم تكن لديه معرفة مسبقة بي- فلن يتنبه إليّ ولن يراني.

وتكتمل عملية الميتامورفوز (التحوّل) قبل خروجي من مرحلة الخادرة بساعات، وهكذا يكون قد مضى على خروجي من البيضة حوالي ثلاثة أشهر، وأكون قد اكتسبتُ هوية جديدة تمامًا. وفي هذه المرحلة يُفرَز إلى منطقة رأسي وصدري مادةٌ سائلة، وبهذه المادة يتمزق الغطاء الموجود على جسمي من شتى مواضعه فأُخرِج أرجلي منها. وأول عمل أقوم به، هو أني أُفرز المواد العادمة المتراكمة في جسمي منذ زمن بعيد، ثم يُضَخّ الدم إلى أجنحتي التي لا زالت زابلة، فأنتظرُ مدة قليلة حتى تجف أجنحتي وتتصلب، وبعد ١٠-٢٠ دقيقة أطير صَوْب الزهور في طلب رزقي.

ها أنا ذا فراشة

إن عينيَّ اللتين هما على شكل خلية العسل، خُلقتا بحيث تريان ألوان الزهور والفراشات الأخرى على أتم وجه وأكمله. وإلى جانب ملاءمة عيوننا للضوء، فإن بعض الفروق في أجسامنا والاختلافَ في شكل الجسم من نوع لآخر، أدى إلى انقسامنا إلى مجموعتين رئيستين: ليليّ، ونهاري؛ ولكي تعرف تلك الفروق بسهولة وتُميز بين النوعين، إليك بعض الخصائص المهمة الرئيسة:

إن ألوان أصنافنا النهارية حية وفاتحة وجميلة، والهوائيات التي على رؤوسها، على شكل رأس دبوس، وهي ترفع أجنحتها في أوقات الاستراحة. وأما الليلية فتتميز بأنها -في الغالب- ذات أجسام ضخمة ومنتفخة، وأجنحتُها أصغرُ مقارنةً بالنهارية، وألوانها باهتة وغير جذابة، كما أن رؤوس هوائياتها، على شكل فرشاة أو مهفةٍ، وأفرادها تطير بالليل وتقضي نهارها في أمكنة هادئة ومظلمة، وتُرخي أجنحتها بشكل أفقي أو تضمها بحيث تغطي أجسامها.

أكثر ما تعرفه -عزيزي الإنسان- من الفراشات الليلية المألوفة لك هي "دودة القز"؛ فالواحد من هذا الصنف ينتِج لكل شرنقة يصنعها حوالي ٨٠٠ متر من الحرير. ومما يبهر مهندسي النسيج، هو البراعة التي تتمتع به هذه الخيوط التي تصنعها من مركَّب كيميائي خاص جدًّا.

وأما سائر أنواع الفراشات الليلية فأكثرها لا تضر الإنسان، بل تقوم بأعمال كبيرة ومفيدة في مجال تلقيح الزهور، وقليلٌ منها -والتي تسمونها "عثة"- قد تأكل من لباسك -أنت الإنسان- فتضرّك. كما أن من أنواعها المضرة ما تأكل النبات من أمثال الطماطم والذرة والقطن. وبطبيعة الحال، إن ما نسميه "ضررًا" إنما هو بحسب مقاييسك أنت يا إنسان. وأما إذا نظرت إلى الأمور من منظور التوازن الطبيعي، فليس لك أن تُعادي كل أنواع الفراشات لمجردِ أن عُثَّةً أكلتْ من لباسك، أو أن بعضًا آخر منها أكلتْ شيئًا آخر من محاصيلك الزراعية. ولو أنك -أيها الإنسان- لم تفسد البيئة

hiragate.com

وخلَّيت بينها وبين صيَّادِيها الطبيعيةِ، لم يكن بالإمكان أن يتكاثر أعدادها ويزيدَ على الحد الطبيعي، وبالتالي ما كان لها أن تضر بك ضررًا فادحًا.

إن العروق التي في أجنحتنا، هي بمثابة هياكل عظمية تؤدي إلى صلابة الجناح، كما أنها تؤمِّن لنا المناورة المثالية أثناء التحليق في الهواء. وبفضل انتشارها في سطح الجناح الواسع، يتم التحكم في تدفئة سوائل الجسم وتبريدها.

اسمنا العلمي (Lepidoptera)، أي "حرشفيات الأجنحة". وأُطلقَ هذا الاسم علينا، لأن أجسامنا وأجنحتنا مغطاة بحراشف رقيقة وصغيرة جدًّا. وكل واحد من هذه الحراشف عملٌ فني رائع بلونه الخاص وترتيبه الفريد من نوعه، مما يجعلنا بهذا المظهر الخلاب ترجمانًا لألف اسم واسم من أسماء ربنا.

لا تكاد تخلو أرض منّا سوى المنطقة القطبية. وقد أُخذت التدابير اللازمة لمواصلة نسلنا؛ فبعض أنواعنا تحتمي من البرد بفضل ما توجد في دمائها من مادة الكحول وما يُشْبهها من المواد المقاوِمة للتجمد، فتنجو من الموت بسبب البرد، وتتخطى أيام الشتاء على الرغم من عدم تحركها. ونحن نتحكّم في حرارة أجسامنا عبر أجنحتنا، حيث نستقبل بها الشمس من زاوية معينة كأنها ألواح الطاقة الشمسية.

أعضاؤنا وأجهزتنا

إن أفواهنا -نحن الفراشات- من أهم أعضائنا الحياتية. فربُّنا صاحب العلم اللانهائي، قد منح كلَّ حيوان فَمًا يناسب ما يتناوله من الغذاء، وهو الذي جعلَنا نقوم بأعمال حكيمة وبدون أخطاء.

فمثلاً، إن جهازي الهضمي قد خُلق بحيث يَشرب الرحيقَ الموجود في النبات، ولذلك لا بد من أن يكون فمي مثل خرطوم رقيق وقابل للالتواء. وهو بالفعل أعطاني فمًا كهذا، وإلا لكان من الجور عليّ تركيبُ فم على غير هذا الشكل. في حين أنني حينما كنت يرقة عاجزة، كنت أحتاج إلى فم مختلف عن فمي هذا، لأنني كنت أحتاج إلى ما أقضم به الأوراق والفواكه. فشكرًا له تعالى آلاف المرات على أن منحني ذلك الفمَ في تلك الحالة.

ونحن معاشر الفراشات النهارية، نعتمد في معظم أنشطتنا على الضوء وعلى حاسة البصر، ولكن حاسة الشم فينا جيدة أيضًا. وأما إخواننا الليليّون، فما في هوائياتها من خلايا الإحساس، قويةٌ جدًّا، كما أنها تتمتع بحساسية بالغة في العثور على الرائحة وعلى مصدرها بشكل سريع وصائب.

ولا أريد أن أشوّش ذهنك -عزيزي الإنسان- بالخوض في تفاصيل الصناعات الدقيقة لأعضائي الأخرى. فالحراشف الدقيقة في أجنحتي، والشُعيراتُ الحساسة في أرجلي، وعضوُ التوازن المُودَع في جسمي، وأجهزتي الداخلية، كل منها ترجمان وتفسير لاسم من الأسماء الحسنى لخالقي.

فأنت تراني وأنا أحلّق في البراري والأرياف على رؤوس الأزهار بفضل أجهزتي التي كل منها عمل فني رائع، وتعمل من دون أي خلل. فإذا رأيتني نازلة بالقرب منك، فأمعِن فيَّ النظرَ، ولكن -أرجوك- من دون أن تُلحق بي الأذى أو تحاول التقاطي.

والحقيقةُ أنك -عزيزي الإنسان- إذا عوَّدت نفسك على النظر إلى الطبيعة من منظور الحكمة والعبرة أثناء تنزهك في الأرياف، فإنك ستبدأ بتلمُّس تصرفات ربي الجميلة، وستندهش في أمواج الحيرة والعشق والشوق.. غاية ما في الأمر، هي أن تتقن فن النظر إلى الأشياء.

عزيزي الإنسان! إنني أشكرك على حسن إصغائك لي. فرائحة رحيق الياسمين التي تَفتَّحت للتو في تلك الروضة جلبت شهيتي.. إذا سمحت لي، أودّ المغادرة إلى هنالك لأسدَّ جوعتي، ثم أشكرَ ربي الذي أرسَل لي تلك النعم، وجعلني أحس بها وأعثر عليها وأتناولها. اعتني بنفسك وصحتك جيدًا، أستودعك الله. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

hiragate.com

د. ناصر أحمد سنه*

تلاميذ مدارس "الخدمة" وقدراتهم المتميزة

بين الفينة والأخرى تطالعنا فقرات إخبارية على القنوات الفضائية، والصحف السيارة، تعرض لمسابقات و"أولمبياد" يتبارى فيها طلاب ما قبل مرحلة التعليم الجامعي في اليابان، ودول جنوب شرق آسيا، وأوروبا، وأمريكا.. يقدمون "ابتكاراتهم" من "الروبوتات" المتنوعة الأشكال والأحجام والوظائف، صمّموها وأداروها بأنفسهم. وهذا الأمر يبعث في النفس بخليط من مشاعر الدهشة والغبطة والغيرة في آن معًا، ويلح في طرح السؤال: متى تتبنى التربية الإسلامية تنمية تلك

المهارات البارعة، لتثمر في أبنائنا قدرات متميزة؟

لكن مع العروض المدرسية، والزيارات الميدانية لمدارس "تيّار الخدمة"، وبخاصة مدارس الفاتح ومدرسة "جُوشْكون" الدولية بالجانب الآسيوي من مدينة إسطنبول، تغيرت تلك المشاعر وهدأت تلكم الشجون. وسريعًا تبدّل شعور الغيرة بمشاعر الفخر والاعتزاز والتقدير. فمنذ أكثر من عقدين من الزمن، تنظم "المؤسسة التركية للبحث العلمي والتقنية" مسابقات و"أولمبياد" وطنية "لاكتشاف" المواهب والقدرات المتميزة، ليحسن توجيهها واستثمار طاقاتها المبدعة في البحث العلمي. لذا تحرص مدارس "الخدمة" بمراحلها الابتدائية، والمتوسطة، والثانوية، عبر برامج نوعية ودورات مكثفة على إعداد أبنائها المتميزين لتلك المسابقات.

رؤية إيمانية علمية

مدارس الخدمة، تطبق الخطوات الهامة لتنمية العقل المتميز، وذلك عبر تهيئة وتوفير الظروف المدرسية والأسرية والتربوية والبيئية التي يسودها الاستقرار النفسي والأسري والاجتماعي والإرشاد والتربية المعنوية. فالتميز لا ينمو إلا في بيئةٍ ذلك شأنها. كذلك الابتعاد عن كل ما يعيق نمو وتطور ملكات التركيز، والتأمل، والتدبر، والتفكر، والتعقل، والإبداع.. فمثل تلك العمليات التعليمية والتربوية -المباشرة وغير المباشرة- تتعهد الأبناء بالحدب والدفء والرعاية، وتنمية القدرات، وإذكاء المواهب، والإجابة الدائمة والمناسبة عن أسئلتهم.. وتهدف لجعلهم يُحسنون القيام بعمليات التفكير ليصلوا لنتائج صحيحة، والعيش

إن مدارس حركة الخدمة، تطبق الخطوات الهامة لتنمية العقل المتميز، وذلك عبر تهيئة وتوفير الظروف المدرسية والأسرية والتربوية والبيئية التي يسودها الاستقرار النفسي والأسري والاجتماعي، والإرشاد والتربية المعنوية.. فالتميز لا ينمو إلا في بيئةٍ ذلك شأنها.

حراء

وفق "نمط حياة" إيماني وإنساني يتفادى نسق الأفكار السلبي وزيف وتزييف العقل، لتصل إلى الحقيقة والتميز والاستقلالية والمسؤولية. فهذه المدارس تعتمد على "رؤية إيمانية علمية" تطبق سبل التفاعل المعرفي والعلمي والتعليمي والقيمي والتربوي والسلوكي والمهاري، مع الحرص على تجديد وتنوع الأساليب، والمحافظة على المضمون، وهي أمور هامة في تعهد القدرات الإبداعية للطلاب.

كما تحرص على متابعة أنشطة ومقررات الطلاب التعليمية وتقويمها دوريًّا، لمعرفة مدى تحصيلهم الدراسي داخل المدرسة وخارجها، واستثمار أفكارهم، وتوجيههم لحسن التحكم في سلوكياتهم، مع دوام الربط والتواصل والمتابعة مع أسرة التلميذ عبر "إشعاع" المدرسة على محيطها. فالولد "ابن أسرته ومدرسته وبيئته"، فإحاطتهم بمناخ من سمات النظام والنظافة، والانضباط والالتزام، والمرونة والبساطة، والقدوة والتعاون، والتوافق والتوسط، والمشورة والمناقشة، والتحليل والاستنتاج؛ وتنشئتهم على قدر كبير من الحرية الشخصية المنضبطة والعطف والحزم والاستقلالية والمبادأة وعدم الاعتمادية، والتغذية الراجعة للمشاريع المُطبقة ولأفكارهم، لتتراكم وتتلاقح خبراتهم.. كفيل ببناء قدرات أعلى من الفهم والتأليف والتركيب والابتكار.. وهل الإبداع والذوات المبدعة إلا حصيلة تلكم القدرات؟

المعلّمون القدوة سلوكيًّا وعلميًّا

وقبيل هذا وذاك، تحرص "مدارس الخدمة" على تكوين المعلمين القدوة الأكفاء -سلوكيًّا وعلميًّا- لينهضوا

hiragate.com

بعملية التربية والتعليم وتنفيذ هذه البرامج والدورات والمشاريع المتنوعة، وترسيخ حب التلاميذ للمدرسة، وتكوين الطلاب "الأدلاء" الذين يتولون استصحاب ومتابعة غيرهم من الطلاب.. فبذلك يتم جني ثمرات التربية القيمية والإيمانية والأخلاقية والتعليمية المرجوة والأكيدة، وركيزتها بناء الإنسان منذ نعومة أظفاره.

ولِمَ لا؟ فالسيرة النبوية المُطهرة، توضح لنا كيف كان رسول الله ﷺ يرعى وينمي الخصائص الذاتية والفردية لكل فرد من صحابته الكرام ﷺ، مراعيًا حاله وطبيعته وقدراته وخصائصه ومميزاته.. فيجيب مرة بقوله ﷺ: "أفضل الأعمال، الإيمان بالله وحده، ثم الجهاد" (رواه الطبراني)، ويجيب مرة أخرى بقوله: "أفضل الأعمال، الصلاة في أول وقتها" (رواه الترمذي)، وكذلك: "أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورًا" (رواه البيهقي). ونراه ﷺ ينظر إلى عبد الله بن عمر ﷺ فيرى فيه أهلية لصلاة الليل، فيقول فيه: "نِعْم الرجل عبد الله، لو كان يصلّي من الليل"(رواه البخاري). ويقول في أبي عبيدة بن الجراح: "لكل أمة أمينًا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح" (رواه البخاري). ويدعو ﷺ لابن عباس ﷺ قائلاً: "اللهم علّمه الحكمة، وتأويل الكتاب" (رواه الترمذي)، وقال ﷺ: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان بن عفان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أُبي بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح" (رواه الترمذي).. إلى غير ذلك من الأحاديث الشريفة التي تضع الأسس الموضوعية للعناية بالمواهب، وتنمية الخصائص

الذاتية، والقدرات المتميزة، واستمرارية معايشتها، ودوام تنميتها، وصقلها كيفًا قبل صقلها كمًّا.

مدرسة "جُوشْكون" الدولية أنموذجًا

قاعات درس متطورة، ومكتبة أنيقة، ومعامل علمية، وورشات تقنية للتدرب على تكوين وتشغيل الروبوتات، وقاعة عروض ثلاثية الأبعاد، وملاعب رياضية، وقاعات فنية للرسم والموسيقى، ومسرح كبير، ومطاعم فاخرة، ونُزل وإقامة مريحة، وجوائز بمدخل المدرسة مبثوثة، وفريق تدريسي ومهني كفء ونشيط كنشاط خلايا النحل.. كل هذا وغيره يستقبلك في مدرسة "جوشكون" الدولية بشرق إسطنبول.

ولعل الانطباع الأساس حول رؤية المدرسة التعليمية والتربوية، اعتمادها على إثارة الحواس عبر مُدخلات العلم والمعرفة، والحث على تشكيل المدركات والأفكار وتنشيط عمليات التفكير والتدبر الذي يُمكّن الفرد من إصدار حكم أو ممارسة سلوك، وعليه تقع مسؤولية توجيه حواسه لهذا أو ذاك: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٦). وتشير الدراسات إلى أن أبناءنا يحصلون على نحو ٧٥٪ من معلوماتهم عن طريق البصر، و١٣٪ منها عن طريق السمع، و٦٪ منها عن طريق اللمس، و٣٪ منها عن طريق الشم، و٣٪ منها عن طريق التذوق، وهم يضاعفون من قوة التعلم لديهم يافعين وبمرور العمر. ولعل تهيئة الظروف المناسبة لتمكين الأبناء من أن يتعاملوا مع خيالهم، وقدرتهم على التحدث بلغة العلم -وهي لغة الرياضيات- ومن

hiragate.com

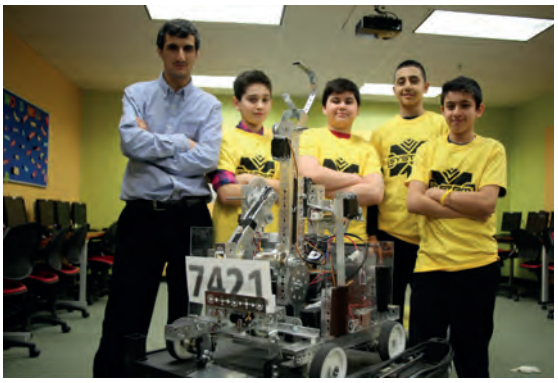

ثم تحويل تلك الأفكار المجردة إلى نماذج تطبيقية، من شأنه إثمار المزيد والمزيد من الابتكارات والاختراعات التي تخدم أمتهم وأوطانهم.

كما ذكرت دراسات "جان بياجيه" أن هناك ترابطًا في العلاقة بين الإدراك والصور العقلية والمحاكاة؛ فعمليات التمثيل البصري ترتبط بعضها ببعض، فالتفكير البصري من خلال الصورة ولغة الشكل، يرتبط ويوفر مخزونًا هائلاً في الذاكرة والخيال لا يحده حدود الواقع الراهن، بل يذهب في الماضي، ويعيش الحاضر، ويحمل مشاعل استشراف المستقبل نحو الابتكار. فللقدرات الإبداعية وبنية العقل المُتميز علاقات متداخلة كعلاقة التفكير بموضوعه، فكلما ازدادت المدخلات والتفاعلات الطبيعية والرؤى وفعل التثاقف الخاص بموضوع ما، ازداد التفكير فيه، ونشأت علاقات وروابط تربط عمليات التفكير بالذات المفكرة في تناغم مستمر. والمتأمل في القرآن الكريم، يجد تصويرًا رائعًا يُقرّب للأذهان نعيم الجنة وأنهارها وثمارها، وأطعمتها وأشربتها، وسكونها وسلامها وحال أهلها. وهو حث متواصل على التأمل في إبداع الله تعالى ينمي ملكات اكتشاف التناسق والتوافق والتكامل والروعة في الكون.

ومن خصائص تربية أبنائنا، تنمية قدرات التركيز، وهي أول خطوات التفكير، وتختص بجذب الانتباه لمجموعة من المعلومات المختارة، وقدرات تجميع المعلومات عبر وسائل الحس المختلفة، أو الوسائل التقنية الحديثة، أو عبر طرح الأسئلة، وقدرات ترتيب المعلومات ومقارنتها ليكون استخدامها أكثر كفاءة، وقدرات التذكر بتخزين ومراجعة واسترجاع المعلومات

تعتمد مدارس "الخدمة" في رؤيتها، على الدليل والبرهان الذي يُقنع، والعلم والمعرفة التي تُشبع طريقًا آكدًا للعقل الذي يبدع، وعمليات التفكير وتنمية قدرات ومهارات العقل المُبدع التي تشمل كل وظائف العقل وخبراته المكتسبة من تعقل وتأويل وتدبر وتفقه وتفكر وتذكر ونظر وشهود وإبصار وحكمة.

حراء

والمعارف.. ويمكن تشفيرها وترتيبها وربطها بأشياء مشتركة، كي يسهل تخزينها واستعادتها من الذاكرة الطويلة المدى.. وقدرات التحليل لإيضاح المتوافر من المعلومات، بالتحديد والتمييز بين مختلف أجزائها وفروعها وخصائصها الجزئية والكلية مع تحديد العلاقات بينها.. كذلك قدرات تلخيص النتائج تلخيصًا دقيقًا غير مخل، ومن ثم تعديل بناء نسق المعرفة لتنضوي تحته هذه النتائج الجديدة.. ثم القدرات التوليدية والإبداعية، لاستخلاص الأسباب التي تقع خلف المشكلة، ومحاولات التطبيق والتعميم للظاهرة، وتوليد معنى جديد من تغيير شكل المعلومة والتوقع بما قد يحدث مستقبلاً.. ثم قدرات التقويم لكفاءة وجودة الأفكار وصحتها عبر تأسيس معايير ونظم ثابتة لعملية التقويم، والتأكد من الدقة المتبعة في الأعمال.

ولا شك أن تنمية حب القراءة والشغف بالكتب، معلم أساس للعقل المتميز، والتعود على سمات القراءة الابتكارية؛ استيعابًا وفهمًا واستفسارًا وتساؤلاً واستنباطًا واستنتاجًا وترابطًا وتراكمًا وإجابة.. وينبغي عدم التبرم

hiragate.com

من إلحاح أبنائنا الفضولي، للمعرفة التي تعبر عن "قلقهم المعرفي" وتعطشهم للمزيد منها، ولإيجاد القدرات المتميزة والعقول المُبدعة لدى أبنائنا.. هم بحاجة إلى النقل والاقتداء والقدوة والتعلم الاجتماعي للممارسات الدينية والثقافية والحضارية. فالتميز في جوهره، ما هو إلا أسلوب تفكير وعمل يمكن محاكاته، لذا فكل من يسهم في تربيتهم بصورة أو بأخرى؛ كالأقارب والأهل والمربين والمعلمين والإعلاميين والرفاق وأفراد المجتمع وغيرهم، هو قدوة يؤثر -بما لديه من قدرات ومهارات- في تنمية العقل المتميز لديهم.

ويتم التدرب على كيفية تنظيم حياتهم وترقيتها وإحسانها وإتقانها، وفهم الأحداث والمشكلات وحسن التعامل معها، والسعي الحثيث لحل ما قد ينشأ من معضلات في إطار كيفية الإفادة من تراكم خبراتهم الشخصية التي قد تحصلوا عليها سابقًا فيما قد يستجد من أمور ومشكلات، وتحسينًا للتعامل مع البشر والبيئة، تكافلاً وتكاملاً وتعاونًا وتوازنًا وانسجامًا، وتطبيقًا للرباعية المحورية للأستاذين "بديع الزمان سعيد النورسي"، و"فتح الله كولن"؛ "عشق العلم، وعزم العمل، والبيئة الصالحة، والبحث المنهجي".

المنتخب التركي للمسابقات الدولية في مجال العلوم

على مستوى تركيا، يتقدم عشرات الآلاف من الطلاب المتفوقين للتصفيات فيما بينهم. ومن ثم يسفر العدد عن عدة مئات، وتخصص ميداليات ذهبية وفضية وبرونزية للفائزين تحصد مدارس الفاتح منها نصيب الأسد. ثم يتم اختيار ٢٣ طالبًا يمثلون "المنتخب الوطني التركي للمسابقات الدولية"، وهو يحظى بدعم معنوي ومادي كبير. ففي "عصر المعلومات" وصناعة المعرفة، يلعب التفكير الإبداعي واستثمار المعلومات -وصولاً للعقل المبدع المبتكر- دورًا محوريًّا فيه. وأضحت الدول تقوم بعدد مبدعيها وبراءات الاختراع لديها. فتشير الإحصاءات -على سبيل المثال- أن اليابان تُسجل نحو ١٠٠٠ براءة اختراع من مليون نسمة من سكانها، وهنالك في السويد ٢٠٠ براءة اختراع من مليون نسمة، بينما في الدول العربية براءة اختراع واحدة من مليون نسمة.

فكيف ننمي مهارات "العقل المبدع" كجانب أساس في النمو المعرفي والإدراكي والوجداني والسلوكي لدى أبنائنا؟

نحن أمة "اقرأ"، أمة الجمع بين النقل والعقل، أمة الوحي المعصوم الخالد والاجتهاد المعرفي والعقلي. "أمة المعرفة" على شتى صورها، أمة "العقل الوازع" في العقيدة والتكليف، وأمة "العقل المدرك" والمتتبع للأوامر والسنن الكونية الشاملة، وأمة "العقل المتأمل" المُختص بالتأمل وتقليب الأمور على وجوهها للحكم الواعي عليها واستخلاص النتائج. ثم إننا أمة "العقل الرشيد" أعلى درجات العقل الإنساني، لكونه يعلو ويستوفي ما سبقه من أنواع العقل، فضلاً عن مزيد من النضج والتمام. هذه الأمة قد أمرها ربها ﷻ ورسولها الكريم ﷺ بالتفكر والتدبر والتعقل والتعلم والعلم والعمل، والسعي لتقديم النموذج الوسطي الأسمى المُنقذ للبشرية.

جملة القول: تعتمد مدارس "الخدمة" في رؤيتها، على الدليل والبرهان الذي يُقنع، والعلم والمعرفة التي تُشبع طريقًا آكدًا للعقل الذي يبدع، وعمليات التفكير وتنمية قدرات ومهارات العقل المُبدع التي تشمل كل وظائف العقل وخبراته المكتسبة من تعقل وتأويل وتدبر وتفقه وتفكر وتذكر ونظر وشهود وإبصار وحكمة.. هي مسؤولية فردية وأسرية ومجتمعية مشتركة. وذلك من خلال مناخ أسري واجتماعي وتعليمي وإعلامي، وعبر مناهج وأساليب ومقررات تربوية وعلمية وتعليمية لتنمية المواهب عمومًا، وقدرات التفكير المختلفة خصوصًا، يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۞ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾(البقرة:٢١٩-٢٢٠). فقدرات التفكير كامنة في الإنسان، وتنميتها يمكّن الأفراد والمجتمعات من النهوض بهذه "الفريضة الإسلامية"، فلا تتقاذفهما الأحداث والصعوبات، دون إيجاد حلول شافية ناجعة لها. لذا حق القول لمن أثار الشغف والشجون: "عذرًا، فلأبنائنا أيضًا قدراتهم المتميزة". ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

أ.د. الشاهد البوشيخي*

نظرات في مفهوم القوة في الإسلام

لو تأملنا أركان الدين الخمسة بكاملها، وتأملنا سواها من الفرائض والنوافل، لوجدناها تصبّ كلها في اتجاه واحد هو "تكوين المؤمن القوي".

١- الشهادة في تكوين المؤمن القوي

"لا إله إلا الله"، تحرّر العبد مما سوى الله مطلقًا، فلا يبقى لغير الله عليه سلطان.. تحرر العبد لله ﷻ، واتباعه لرسول الله ﷺ.. تجعله كذلك مؤتمًّا بشرع لا يلتفت إلا لمن اتبع ذلك الشرع.. وتجعل الأمة جميعًا تدور حول أمر واحد وحيد هو حبل الله ﷻ وهو شرع في عباده وبين عباده.

٢- إقامة الصلاة في تكوين المؤمن القوي

إقامة الصلاة، تجعل العبد أقوى ما يكون في التغلب على جميع الصعوبات؛ لينظم حياته، ويأتمر بأمر الله تعالى، ويستطيع أن يمسك نفسه بقوة لتذْكر ربها في الصلاة على أي حال كان أمرها قبل الصلاة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤). إن الذي يستطيع بتكبيرة الإحرام أن ينتقل من عالم كانت نفسه منشغلة فيه بتجارة أو غير ذلك، إلى الحضور بين يدي الله ﷻ استحضارًا تامًّا، واتجه إليه وأعرض عما سواه. نعم، إن الذي يستطيع هذا الانتقال السريع؛ من ذكر غير الله إلى ذكر الله فقط، فهو قوي حقًّا، وإنه قوي جدًّا في قدرته على الاستحضار، وقوي على التمكن من نفسه لتوجيهها الوجهة التي ينبغي أن تتّجه إليها.

إن الإسلام يهتم بالمعاني الخارجية، ولكن المعاني الداخلية عنده أهمُّ؛ وإنما تعتبر المعاني الخارجية وسائل ومساعدات لتحصيل تلك المعاني الداخلية..

فالوضوء وشكل الصلاة، إنما يهدف أساسًا لذكر الله ﷻ، أما إذا توضأ العبد وقام وركع وسجد وفعل أفعال الصلاة بصفة عامة، ولكنه كان داخلها غائبًا غيْر حاضر، فما صلّى.

الصيام في تكوين المؤمن القوي

الصيام أيضًا، يحرر العبد من الشهوات، ولا يبقى لها سلطان عليه، حتى الحلال، لأننا في الصيام لا نصوم عن الحرام، إن هذا الأمر نصوم عنه في غير رمضان، لكن في رمضان نتدرب على ترك الحلال، ونتدرّب على الصيام عن الحلال، وعن الشهوات الحلال؛ لترقية عزم المؤمن، وترقية شخصيته، وتقوية إرادته.. لأن كثيرًا من الخلْق يعبدون أهواءهم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(الجاثية:٢٣). ما أكثر من يعبد هواه، هؤلاء أكثرية مَن على الأرض فأكثرهم عبَدة الشهوات.

الزكاة في تكوين المؤمن القوي

الزكاة أيضًا، تقوّي المؤمن بدَفعه لأن يصبح معطيًا لا آخذًا، لأن "اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى"، واليد العليا هي المنفقة. المفروض أن تكون أكياس القمح والطحين تذهب من العالم الإسلامي إلى الخارج لا العكس، لا أن تأتي أكياسهم وألبستهم ومصبَّراتُهم ليُعينوا بها عجزة العالم الإسلامي وبلاد المسلمين، هذا وضع منكوس معكوس.

الإسلام جاء لينتج الأقوياء في المال أيضًا، ولينتج الذين تتم لهم أركان الإسلام بأن يصيروا مزكّين منفقين بعضًا مما آتاهم الله ﷻ معطين له إلى الذين يحتاجونه حتى ولو كانوا كفارًا: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٧٢).

الحج في تكوين المؤمن القوي

والحج أيضًا، وجه آخر لتكوين القوي.. وجه آخر تجتمع فيه تلك الوجوه السابقة؛ فيه تحرير العبد لله حتى في الشكل حين يُحرِم ويلبس خرقة يلف نفسه فيها كأنها كفن، فيتحرر من الشهوات ويتحرر لله ﷻ، ويظل يدور حول بيت الله رمزًا لشرع الله وحبْله معتصمًا به ﷻ، وينفق في سبيل ذلك كما يفعل في "الزكاة"، ويضحي ويترك الشهوات كما يفعل في "الصيام"، ويتم الاستحضار الكامل والعبودية الكاملة كما هو أمر "الصلاة". كل ذلك يتجمع في صورة جماعية لجمع كلمة المسلمين على أقصى حد وعلى أكبر صورة.

فالإسلام إذن بصفة عامة، إنما جاء ليكوّن الأقوياء وليخرج الأقوياء.. لأن الإسلام أمانة ثقيلة. فكيف تعطى الأمانة لضعيف؟! أرأيتم لو أُعْطِيت أو وُجدت في يد ضعيف، هل يستطيع حملها حين تعطى له؟ لا يحمل الأمانة ولا يُبلغ الرسالة، إلا القوي. القوة إذن، هدف لهذا الدين من جميع شرائعه، والسبب يرتبط برسالة هذه الأمة التي هي الشهادة على الناس، وهي إظهار دين الله في الأرض كلها.

لقد التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ولمّا يتجاوز الإسلام الجزيرة العربية بعدُ، ولكنه هو رسولٌ إلى الناس كافة. فمَن الذي يحمل الأمانة مِن بعده؟ مَن الذي يبلّغ دين الله لمَن لم يبْلغه؟ لا بد أن يكون الحمَلة أقوياء. ولذلك استطاع الجيل الأول من الصحابة ﷺ ومَن بعدهم مِن التابعين، تبليغ هذا الدين إلى العالم. ولكن بماذا؟ بوجود القوة بالله. إن صفة "القوة بالله" كانت عالية فيهم، فاستطاعوا بها أن يبلّغوا دين الله إلى أقاصي المعمورة. وما انحسر وما ضعف ذلك المدّ الإسلامي، إلا حين ضعف معنى القوة الشرعية في المسلمين.

حين ضعف معنى "القوة"، بدأنا نرى تراجع الفتوحات الإسلامية وقد كانت تدق أبواب باريس من الجهة الغربية، وأبواب فيينا من الجهة الشرقية، حين ظهرت هاته المعاني على يد محمد الفاتح وجيشه، حيث ظهرت معاني القوة الشرعية.

كيف تُكتسب هذه "القوة" إذن؟ سمعنا فيما سمعنا وفيما يتلى علينا اليوم، أن موسى عليه السلام قال له الله ﷻ حين أُعطيت له الألواح: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾(الأعراف:١٤٥)، وقال ليحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾(مريم:١٢)، وقال لأتباع موسى عليه السلام ضاربًا لنا المثل بهم إذ هم المؤمنون في وقتهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾(البقرة:٦٣).

hiragate.com

لا سبيل للمسلمين إلى القوة إلا إذا أخذوا ما آتاهم الله ﷻ بقوة، وتمسكوا به بقوة: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾(الأعراف:١٧٠)، ليس "يُمْسِكون" بالكتاب، بل "يُمَسِّكُون"؛ أيْ يأخذون الكتاب بقوّة، أيْ أن يتعاملوا مع كل الأوامر على أنها واجبة التنفيذ، وكل النواهي على أنها واجبة الاجتناب.

والسر هو موقع الإنسان من الله، موقع المسلم من ربه ﷺ أنه عبدٌ لله، فالعبد يجب أن يطيع سيده دون مناقشة: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(النساء:٦٥). هذا ربّي إذا صدر منه الأمر يسبق كل أمر.. هذا هو الشرع، وبهذا جاء الدين، وبهذا يمكن اكتساب القوة من جديد، إذ الجميع في هذا الدين محفوظ موقعُه بشرع الله.

فالإمام طاعته واجبة بشرع الله ما دام مطيعًا لشرع الله، إنما الطاعة في المعروف، والطاعة واجبة؛ لأن الجميع لا يطيع غير الله، الكل يطيع شرع الله.

إن أخْذ الكتاب بقوّة، يقتضي أن يُتعامل معه على أنه أكبر من أي شيء آخر؛ يأتي إلى الإنسان يخاطبه، يطلب منه أن يفعل وأن لا يفعل، فيجب الإقبال على الكتاب والسنة، وعلى العلم بالشرع لمعرفة ما يطلب الله ﷻ منّا، فنفعل ذلك ونُربّي عليه أهلنا وأولادنا، وندعو إلى ذلك.

والشرع، ضَمِن جميع الحقوق من خلال أمره بجميع الواجبات، وهناك علاقة تلازمية بين الواجبات والحقوق. فلا يوجد حق إلا وهو واجب في عنق آخر؛ حقّ الزوجة هو واجب في عنق الزوج، وحق الزوج على الزوجة واجب في عنق الزوجة، وحق الآباء على البنين واجب في حق البنين، وحق البنين على الآباء واجب في حق الآباء، وحق الرئيس على المرؤوسين واجب في حق المرؤوسين، وحق المرؤوسين على الرئيس واجب في حق الرئيس.. وهكذا.

فهذا التلازم يعني أن الإسلام ضمن جميع حقوق الناس كيفما كانت نوعيتهم، ضمنها من خلال ضمانة الواجبات، لأنه فرض واجبات. والمطلوب أداء الواجب قبل المطالبة بالحق. قال رسول الله ﷺ: "إنه ستكون بعدي أثرة" أيْ أنه سيأتي زمان يُؤثر الناس فيه أنفسهم على الآخرين، أي يحبّون أن يستبدّوا بالمسائل كلها، ويؤدُّوها لأنفسهم. و"الأثَرة" هي ضدّ "الإيثار"؛ فـ"الإيثار" يعني أن الإنسان يُؤثر الآخرين على نفسه رغم أنه محتاج، أما "الأثرة" هي أخذ الشيء للنفس دون الآخرين، قال ﷺ: "إنها ستكون بعدي أثَرَة وأمور تنكرونها". قالوا: "يا رسول الله، كيف تأمر مَن أدرك منا ذلك؟"، قال: "تؤدُّون الحقّ الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم" (رواه مسلم).

> **لقد جاء الإسلام ليكوّن ويخرج الأقوياء، لأنه أمانة ثقيلة. فكيف تعطى الأمانة لضعيف؟! إذن، لا يحمل الأمانة ولا يُبلغ الرسالة، إلا القوي. إذن القوة، هدف لهذا الدين من جميع شرائعه، والسبب يرتبط برسالة هذه الأمة التي هي الشهادة على الناس، وهي إظهار دين الله في الأرض كلها.**

حراء

إذن، ها هنا ترتيب "الحق" و"الواجب"؛ فالواجب أولاً؛ فكل صاحب حرفة واجبه أن يؤدي الواجب أولاً، ثم يطلب الحق الذي يترتب على ذلك الواجب.

فـ"أخْذ الكتاب بقوة"، هو السبب في كل خير يأتي بعده. لماذا؟ لأنه يأخذ الكتاب بقوة. فعندما يأخذ الإنسان الدين بقوّة، يصير غير عادي، ويصير إنسانًا نُفخت فيه روح القرآن، ونفخت فيه روح الإيمان.. ذلك الكتاب أعطى أثَره فيه فأصبح غير عادي، إذ ذاك يدفعه الشرع دفعًا إلى أن يطلب جميع أنواع القوة الأخرى.

ما هي أنواع القوة الأخرى وعناصرها؟

ففي زماننا هذا، وفي غير زماننا، كانت القوة تتمثل في "العلم" بالله، والعلم بالشرع، والعلم بالدعوة.. وتتمثل في "المال"، لأن المال أساس دعمها. ثم في قوة "الإعلام"، لأن الإعلام هو التبليغ للدعوة بالحِكمة، ودفْع النفوس لحملها بقوة كل هذه العناصر للقوة يجب طلبها، وهي مضمنة في الأركان الخمسة للإنسان -لو يتدبر- ومتضمنة في جميع شرع الله، لأنها هي من مظاهر القوة أيضًا،

hiragate.com

ويدفع إليها دفعًا أخذ الكتاب بقوة، أي أخذ الدين بقوة.

١– قوة العلم وأولوياته

يقوم الإنسان بطلب العلم، فينهض ليتعلّم العلم ويعلّمه غيره. وطلب العلم رأسه "العلم الشرعي" وهو العلم الحقيقي: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(البقرة:١٢٠).

ولكن حتى العلم التسخيري الذي به يسخر الكون هو -كذلك- مطلوب في الشريعة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ﴾(الحج:٦٥). كيف نسخر الهواء، كيف نسخر الضوء والمعادن والبحار والجو، وكل شيء من حولنا هو كذلك له نظام موجود في هذا الكون.

فالعلم أساس القوة منذ عهد آدم عليه السلام، به تمّت خلافته.. وكذلك ترونه في أول شرط جعله الله مؤهلاً لطالوت ليكون ملِكًا، قالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالملك مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾(البقرة:٢٤٧).

القوة المادية تأتي بعد القوة المعنوية وبعد قوة العلم.. فالعلم يجب أن يَطلبه المسلمون أولاً، وهو واجب عليهم. وأول ما نزل من كتاب ربّنا هو: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾(العلق:١). هذه الأمّة يجب أن تُصدّر العلماء لا أن تستوردهم، ويجب أن تكون هي الأولى في تسخير الكون لا أن تكون هي نفسها مسخَّرة ضمن بقيّة الكائنات لغيرها.. نعم، لا بد أن نطلب العلم بجميع معاني العلم وبجميع أشكاله على هذا الترتيب؛ العلم الشرعي أولاً، والعلم الكوني ثانيًا، علم تسخير الكون.

٢– قوة المال

كذلك المال مرتبط بأمر الزكاة، لأن المال قِوام الأعمال؛ "نعْم المال الصالح للعبد الصالح"، به تتم أمور كثيرة. بالمال استطاع الآن المفسدون في الكرة الأرضية أن يقودوا العالم بسهولة.

ولنتأمل قول الله ﷻ عن بني إسرائيل المفسدين في الأرض: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾(آل عمران:١١٢). هذا الاستثناء معناه؛ أن هاته الذلة تزول بحبل من الله وحبل من الناس.. وهم كانوا تحت ذمة المسلمين وفي ذمتهم، كانت الجزية مضروبة عليهم حسب الشرع: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(التوبة:٢٩)، والصَّغار هو الذُّل والهوان، وإعطاؤهم الجزية هو نفسه ذُلّ وهوان. فكيف يزول هذا الذل؟ يكون زواله بحبل من الله وحبل من الناس.

وكيف نفهم "حبل الله" الذي سبق حبل الناس: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾؛ مشيئة الناس تابعة لمشيئة الله ﷻ، نحن انسلخنا من حقيقة الإسلام، ومن وضع الأمة الإسلامية التي كانت خيْر أمة أُخرجت للناس. والأمة الإسلامية الآن رقع، مجزَّؤون ممزّقون.. مفهوم الأمة لا وجود له في الواقع.

هذا حبل الله للمفسدين اليوم، وسهْل قطْعه، وسَهْل انقطاعه والله ﷻ يقطعه عنهم. وبسببه يُقطع عنهم حبل الناس، ولكن متى؟ إذا رجع المسلمون وتابوا، وإذا رجعوا إلى الوضع الطبيعي الذي هو التحلّي بالقوّة التي أمرهم الله ﷻ بها، وهي أخذ الكتاب بقوة. فإذا أخذوا الكتاب بقوّة فإن الله ﷻ يقطع حبله عن المفسدين في الأرض، ويقطع بالتبع حبل غيرهم من الناس عنهم كذلك.

والإيمان الحقيقي الذي حدد القرآن الكريم مصطلحاته فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾(الحجرات:١٥)، أي عندهم اليقين، ثم: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(الحجرات:١٥)؛ فجاهدوا بأموالهم، وجاهدوا بأنفسهم، وليس في سبيل دنيا أو مصلحة أو جاه، بل في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله، وإظهار دين الله.

هذه بعض معاني "قوة المال"؛ يعني أن طلب المال هو طلب للقوة، لأن المال قوام الأعمال. إذن يجب أن نكون كاسبين للمال على أقصى ما يكون وجوه الكسب، ونسخّر ذلك لإعلاء كلمة الله ﷻ لا لغير ذلك.

٣– قوة الإعلام بين الواقع والمطلوب

إن الإعلام قوّة من أكبر القوى، لأنها تتّجه إلى تكوين عقول الناس وأفكارهم واعتقاداتهم وأذواقهم، بل تتجه إلى غسل أدمغتهم. أما إعلام المسلمين -في الحقيقة- فهو موجَّه لتوعية الناس ولجعلهم يعرفون الحقيقة ولنشر دين الله.. رسالة الإعلام في الإسلام هي

hiragate.com

إبلاغ وتبليغ الدين على حقيقته، وتبليغ حقائق الواقع كما هي، ليَعرف الناسُ ويتَبيّنوا الصواب من الخطأ والطيّب من الخبيث. فهذا -كذلك- يجب أن يطلب فيه المسلمون القوّة، وأن يكونوا أقوياء فيه، وأن ينافسوا فيه إلى أقصى حدود المنافسة. وهكذا "المال"، وهكذا "العلم"، وهكذا "الإعلام"، ومثل ذلك يقال عن معنى الأمّة المشار إليها سابقًا.

إن المسلمين الآن لا بد أن يشعروا من جديد بمعنى الأمّة الإسلامية، مرّ الوقت الذي نقول فيه هذا سوداني، وذاك تركي، وذاك تونسي.. بل نحن مسلمون وكفى. فأساس العلاقات والارتباطات، وأساس كل شيء، هو "الإسلام"، ولا شيء غيره. فنحن أبناء الإسلام، واللهُ ربُّنا، وأوْلى عباد الله بالله من شكر، كل معنى رفع إلى جانب الإسلام هو مضاهاة، وهو شيء آخر يخشى منه على المسلمين في إيمانهم. إن الرسول ﷺ حينما نادى على الأنصار -وكان الأوْسيّون والخزرجيّون على شفا التطاحن والتقاتل- الخزرج، قال لهم ﷺ: "ما بالُ دعوى جاهلية"، قالوا: "يا رسول الله كسَعَ رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار"، فقال: "دَعوها فإنها منْتنة" (رواه البخاري).

خلاصة القول

لا بد أن يعرف المسلمون دينهم الحق، ولا بد أن يعرفوا دين الله، فهذه عناصر كبرى للقوة يطلبها الأفراد، وتطلبها الجماعات، وتطلبها الأمة جمعاء.

حين نقول "الأمة"، نقول ذلك على معنى حديث رسول الله ﷺ "مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (رواه مسلم). كيف يتداعى سائر الجسد بالسهر والحمى إذا لم يكن له إحساس مشترك يحُس بعضهم ببعض؟ وكيف يدعو بعضه بعضًا؟

إن أمة المسلمين ذات واحدة، وأمة واحدة، وجسَد واحد.. إذا أُصيب جزء منها فالكل عليه الدفاع.. هذا هو الأصل، وهذه هي الحقيقة، وهذا هو الدين.. فالقوة هذا سببها ليؤخذ الكتاب بقوة: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾(البقرة:٦٣).

هذه عناصرها الكبرى، يجب أن تطلب ويدفع

لا سبيل للمسلمين إلى القوة إلا إذا أخذوا ما آتاهم الله ﷻ بقوة، وتمسكوا به بقوة؛ ليس "يُمْسِكون" بالكتاب، بل "يُمَسِّكُون"؛ أيْ يأخذون الكتاب بقوّة، أي أن يتعاملوا مع كل الأوامر على أنها واجبة التنفيذ، وكل النواهي على أنها واجبة الاجتناب.

حراء

فيها إلى أقصى الحدود، وذلك لأن الله ﷻ في الأمر النهائي الأخير، أعطى توجيهًا عامًّا بأمره؛ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾(الأنفال:٦٠)؛ فالقوة هنا نكرة تفيد العموم، وجاء قبلها حرف "من" التي تعني جزء، ومعناه: القوة أنواع كثيرة جدًّا، ولكن كل ما يصلح أن يكون فيه قوة مما أحلّ الله، يجب أن يُعدّ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

فمن أراد أن يكون قويًّا فليُكثر صلته بالقويّ وهو الله ﷻ، منه تُستمدّ القوة ومن كتابه، وأخذ كتابه بقوّة يكسب القوّة.. فلنأت البيوت من أبوابها، ولنُقبل على الله وعلى شرعه، ولنتب توبة نصوحًا، ولنعزم عزمة صادقة على الرجوع إلى الله ﷻ، نطلب منه القوة لأنه ضامن القوة.

والذي يجعل القوة الشرعية شيئًا آخر هي "الأمانة": ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾(القصص:٢٦). كلّنا في وظائفنا وأعمالنا مستأجرون، فكل واحد منا عليه أن يكون في عمله قويًّا وأمينًا أيضًا. و"الأمانة" ليس من السهل أن تكتسب، لأن مردها خوف الله ﷻ وتقواه.. فالذي لا يعرف الله حق المعرفة، قد يظهر لك أمينًا في بعض المجالات، ولكن في مجالات أخرى يفتقد إليها؛ بينما المؤمن متّصل دائمًا بالحيّ القيوم ﷻ، وهذه الصفة موجودة ما دام الإيمان موجودًا، وكما قال رسول الله ﷺ: "لا إيمان لمن لا أمانة له"(رواه أحمد). ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

hiragate.com

د. محمد البشير بن طبة*

فلسفة الفن والجمال عند فتح الله كولن

1 الجمال هو الرسالة الخالدة التي ينبغي أن يستنّ بها كل إنسان مسلم امتثالاً لمراد الله تعالى. من هنا، نجد "محمد فتح الله كولن" -وقد ملأ القرآن قلبه، وتفتقت على آياته قريحتُه- قد رسم في محاضراته ومؤلفاته وأعماله، لوحات غاية في الجمال، منقوشة بالكلمات والأفكار والمعاني الراقية والسامية. كما نجده ينادي ويلحّ في النداء إلى ضرورة التحلّي بالجمال سواء على مستوى البشرية أو على مستوى محبّيه من رجال الخدمة. ففي لحظة من لحظات الوجد والتدبر والتأمل والارتباط بالله تعالى، تجول عليه نفسُه بخاطرة البحث عن الذات، وعن الحرية، وعن الإنسانية في الإنسان، فيلجأ إلى "الجميل" تدبّرًا ودعاء وأملاً، ليستشفّ روح "الجمال" النابع من "الجميل".. إنه الروح والإكسير الذي

يبعث في الإنسان "الإنسان"، فيقول: "أنعِمْ يا إنسان النظر، ومن سجن نفسك تحرر، ولمحات الجمال تشرب.. ودع قلبك يطير فرحًا، وروحك يرقص طربًا.. واستشرف جمال "الجميل" في كل جمال؛ تطمئن نفسك، ويزدد إيمانك، وإلى ربك تعد إنسانًا".

إن الجمال -كما يقرر علماء التنمية والنهضة- هو الحيوية التي لها إمكان الدخول إلى المجالات كلها -مادية كانت أم معنوية- وهو الذي يسهم في كمال الأشياء ظاهرًا وباطنًا. ومهما قيل في تعريف الجمال، ومهما تحدث الناس في حقيقته، فإنه يظل مقياسًا من أهم المقاييس الحضارية. وهو مصدر من مصادر فرح الخاطر وابتهاج النفس. إنه الظل الذي يأوي إليه المكدود في وقت الظهيرة، وقطرة الماء التي ترطب جوف اللاهث الظمآن. إنه المسحة على رأس اليتيم، ولمسة الوفاء لمن أسدى إلينا معروفًا. إنه -قبل ذلك- ضرب من ضروب الإحسان والإتقان والكمال والتناسق والسمو.

فالجمال هو المفتاح السري للحضارة. أليست الحضارة في منتهى تجليها إلا الجمال في التناسق والنظام والفن في أرقى صوره، وأبهى معانيه؟ تلك هي الحقيقة التي أدركها "محمد فتح الله كولن" وهو يرسي قواعد النهضة التركية المعاصرة، وأدركها من قبله كل من كانت الحضارة همّه وهاجسه؛ فهذا "مالك بن نبي" -رحمة الله عليه- يرى في أن الجمال والفن ما إن تزاوج مع الأخلاق، شكّل الصبغة التي تكمل المشهد الحضاري المنشود، فيقرر "لا يمكن لصورة قبيحة أن توحي بالخيال الجميل، فإنها لمنظرها القبيح في النفس خيالاً أقبح.. والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه. فبالذوق الجميل الذي ينطبع في فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعًا إلى الإحسان في العمل، والإحسان هو الصورة النفسية للجمال. والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة، فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا، وأن نتمثله في شوارعنا وبيوتنا ومقاهينا مسحة الجمال نفسها. إن الجمال هو

الفن والجمال في تعاليم الأستاذ محمد فتح الله كولن، أهم الطرق المؤدية إلى سمو الروح والمشاعر، وهو مفتاح سحري يفتح الكنوز السرية المكتشفة، فوراء الأبواب التي يفتحها تكتسي الأفكار صورها، وتكتسب الخيالات أجسامها.

حراء

وجه الوطن في العالم".

والحق أن محمد فتح الله كولن لا يلبث أن ينبه إلى ضرورة الفن و الجمال في كل مقال يكتبه، حتى إنه عدّ من أبرز الصفات الثمانية لـ"ورثة الأرض"، ما سمّاه "بالوصف السابع، وهو "فكرنا الفني". فالفن والجمال في تعاليمه أهم الطرق المؤدية إلى سمو الروح والمشاعر، وهو مفتاح سحري يفتح الكنوز السرية المكتشفة، فوراء الأبواب التي يفتحها تكتسي الأفكار صورها، وتكتسب الخيالات أجسامها، والمجتمع الذي ضيع الذوق الفني والجمال، لا يمكن -بحال من الأحوال- أن ينعم بحضور وشهود متكامل؛ وفي هذا يقول محمد فتح الله كولن: "الذين ضيعوا فرصة استعمال هذا الطريق من أصحاب القابليات والحظ السيئ، يعيشون طول حياتهم كأشخاص أصابهم الشلل النصفي"، بل يرى أن الإنسان المجرد من الحس الفني والشعور بقيمة الجمال يستوي في ميزان الإنسانية وجوده وعدمه، ذلك أنه لا يستطيع أن ينفع نفسه ولا أن ينفع أمته: "فالأرواح الخالية من الفن والمنغلقة دونه، يستوي وجودهم وعدم وجودهم، لأنه ليسوا إلا أفرادًا لا يستطيعون تقديم أي نفع لا لأنفسهم ولا لعوائلهم ولا لأمتهم، بل قد يكونون ضارّين أيضًا".

لذلك يقرر محمد فتح الله كولن، أن الانطلاقة الحضارية تبدأ من ضرورة إيجاد الرؤية الكونية الصحيحة المتكاملة لتحقيق مهمة خلافة الله تعالى في الأرض، وهي الرؤية الغائبة -في منظوره- لحد الساعة في العالم الإسلامي بسبب غياب النظرة التكاملية والفهم الصحيح للإسلام، وحقيقة الوجود في كل أبعاده، ما نتج عنه "منذ عصور والناظر إلى المجتمع المسلم، لا يرى إلا أنقاضًا

hiragate.com

الجمال هو المفتاح السري للحضارة. أليست الحضارة في منتهى تجليها إلا الجمال في التناسق والنظام والفن في أرقى صوره، وأبهى معانيه؟ تلك هي الحقيقة التي أدركها "محمد فتح الله كولن" وهو يرسي قواعد النهضة المعاصرة.

وأنكاثًا من حيث الأخلاق والفضيلة والعلم والفكر.. فهو بذلك ما زال يبحث عن نظام وفكر بديل في التربية والفن والأخلاق. والصحيح هو أننا بحاجة إلى إرادات فولاذية، وأدمغة أصيلة تحتضن الوجود بأعماقه جميعًا، والإنسان برحابه الدنيوية والأخروية، وتُفسّرهما بل وتتدخل في الأشياء بعنوان خلافة الله في الأرض".

ولا يفوت كولن -ضمن نموذجه- الإشارة إلى جهاز الاستشعار الفني في الإنسان، والذي هو -قطعًا- ليس العين أو الأذن كما تجنح إلى ذلك العديد من الثقافات والجماعات.. وإن كانت هذه الوسائل تأتي من منظوره في المرتبة الثانية بعد الوسيلة الأهم والجهاز الأكفأ وهو القلب، الذي به الإدراك والإحساس الحقيقي لمعنى الجمال وأبعاده.. فالعيون والحواس الظاهرة ترى في الأشياء والحوادث وجوهها الظاهرية وجوانبها المادية، أما البصيرة -وهي ملكة إلهية تتجاوز الفكر- فتحدس وراء كل هذه المظاهر والأخلاق والفضيلة والفن والجمال، ودرجة النضج الروحي عمومًا.

ولكن، هل فعالية القلب ونور البصيرة في استشعار حقيقة الفن وتذوق سحر الجمال؛ مرتبطان بالكسبيات أم بالتربية والتوجيه؟ أم هما قدر على بعض الأمم والمجتمعات دون غيرها؟ أم هما أمر آخر غير ذلك؟ يجيب كولن بصراحة ووضوح؛ أن الأمر كسبي جهادي تربوي، إذ "لا بد أن تكون التربية التي تسمو به من درجة إنسان "بالقوّة" إلى إنسان "بالفعل"، ذات أفق لاهوتي و محور وهبي.. ومن مقترب آخر، أن يكون الإنسان "إنسانًا" وفق المعنى الذي يجعله إنسانًا حقًّا، مرتبط بخضوعه لأوامر قلبه واستماعه إلى روحه.. فعلى الإنسان أن ينظر إلى كل شيء وكل أحد بعين القلب، لأن البناء القلبي والرحابة الروحية للفرد، وتحول إيمانه ومعتقداته إلى جزء من طبيعته، هو الأنموذج المعول عليه في البناء والتشييد، وأنموذج للنظام والرقي.. لذلك ينبغي أن تتغذى "ثقافتنا الذاتية"، بورود حدائقنا وعصارات جذور معانينا وأرواحنا، حتى نبلغ مبتغانا من الفن والذوق الرفيع في كل شأن من شؤون حياتنا. هذه الحقيقة المهمة كفيلة بدعم ذاتيتنا وخصوصيتنا الاجتماعية والدينية والثقافية، وبخاصة وأن الفن لا يستورد مع البضائع والأفكار، وإنما هو ذاتي ملّي، وأي محاولة لمسخ مجتمع ما بفن منظومة أخرى، أو برؤية كونية مختلفة، هي محاولة لإلقاء ذلك المجتمع في هاوية سحيقة من التخلف والفوضى والتبعية والذل. والمصدر الوحيد للفن -في هذا النموذج- هو "مخافة الله تعالى"، والنظر إلى بديع صنعه". نعم، إن تأمل الوجدان لحظة واحدة في كتاب الوجود فأبصر، لشهد في كل مكان النظام والانسجام فوّاحًا، وغنى في الجمال والمعاني مدهشًا. ولا تمس الحاجة إلى تحسس شديد الرهافة، فالقلب المشحون بشيء من المشاعر، يحسّ كل لون وصورة وصوت ونفس شعرًا ونغمًا متلونًا بألوان اللانهاية؛ في الرعد المهيب كما في تغريد الطيور وزقزقة العصافير، وفي وجوه الأزهار الفاتنة كما في أضواء صفحة السماء الساحرة.. ومن يدري ما يشهده الذين يتقدّمون خطوة إلى الأمام في فيزياء الوجود وكيميائه وحياتياته وفضائياته.

ويجمل محمد باباعمي مجموعة شيفرات للفن كما تجسدت في أفكار محمد فتح الله كولن، قائلاً: "ولقد تتبعت أوصاف الفنّ في هذه اللوحات والرسائل المشفّرة، فاكتمل عندي عقد به صدف، أنتقي منها للقارئ أمثلة، وهي:

- الفن من أهم الطرق المؤدية إلى سمو الروح والمشاعر.
- الفن مثل مفتاح سحريّ، يفتح الكنوز السرية المكتشفة.
- الفن طائر فكري يأخذ الإنسان في سياحة إلى

hiragate.com

فسبح بديع خلق الله تعالى.

• الفن هو من أهم العوامل التي تحافظ على المشاعر الإنسانية.

• الفن هو الذي جعل الأرض معبدًا للجمال الإلهي.

• يُظهر العمل الحقيقي نفسه بالفن.

• من لا فن له شبه حي، وشبه ميت.

• الفن هو الذي يجعل الحديد أغلى من الذهب، والنحاس أثمن من البرونز.

• الأرواح الخالية من الفن والمنغلقة دونه يستوي وجودهم وعدم وجودهم.

ولقد شهد شباب مشروع الخدمة، أن محمد فتح الله كولن، لم يدع إلى الجمال والفن بقلمه وحبره فقط، بل عاشه في كل نبرة، ومع كل زفرة، وعند كل نظرة.. حتى إنه غالبًا ما أرهقهم برهافة حسه، وأورثهم شعورًا متوتّرًا تجاه كل كلمة ينطق بها، أو سكتة يسكتها، أو يومئها.. ولا يزال هؤلاء الشباب يذكرون يوم اقترحوا على الأستاذ -وهو في أمريكا- تغيير أثاث صالون الاستقبال، فقبل الأستاذ المقترح على مضض، لكن أمارات الحزن بدت في تقاسيم وجهه، فلما سئل عن السبب، قال: "ألفتُ هذا الأثاث، وإني معترف له بخدمة كبيرة، ويحزنني أن يغادرني أو أستبدل به غيره. بيني وبينه إلف وحب، وحظ من الذوق والجمال لا ينكر".

ولهذه الحال أمثلة كثيرة لا تعلن إلا على حقيقة واحدة، هي أن الفن والجمال إكسير الحياة، ومفتاح سحري، وطائر فكري، لا غنى عنه في مشروع، أو فكرة، أو حركة؛ وهو في "البراديم كولن" سبب من أسباب الرشد والنضج الفكري والحضاري والحركي.

ولا يفوت الحديث عن الجمال والفن في الرؤية الحضارية لمحمد فتح الله كولن؛ الإشارة إلى الذوق الرفيع، والحس والأدبي المرهف، والجمال الأخاذ، واللغة الشاعرية الرقيقة التي تصبغ كتابات فتح الله كولن، وهي وإن وصلت إلينا مترجمة في غالبها من التركية، إلا أن معانيها المتضمنة، تستنفر في داخل كل ذواق وفنان وشاعر تلك القيمة الكبيرة التي تميز هذا الرجل. لذلك نجده هو ذاته، له كلامه الخاص عن الأدب ومكانته وقيمته في الحياة العامة، بل وضرورته لفهم أسرار الوجود وتدبر كتاب الله تعالى. وفي هذا السياق يقول: "ولا بد من الاعتراف أن الأدب جمال وفن، ذلك أن الأديب كالفنّان، يبحث دومًا في ألوان الكون وخطوطه وأشكاله عن نفسه، وفي اللحظة التي يجد فيها ما يبحث ويعبّر عنه، يكسر قلمه ويرمي بفرشاته ويغيب بذهول وإعجاب عن نفسه.. والأدباء والشعراء بترنمهم بالجمال الباطني والظاهري، أي الجمال في الأنفس وفي الآفاق، يشبهون عازفي الناي".

ومع كون الفن والجمال إكسير الأدب، إلا أن "العنصر الأساسي في الأدب هو المعنى. لذا يجب أن تكون الكلمات المذكورة قليلة وقصيرة وغنية بالمعاني". هنا نجد محمد فتح الله كولن قد انتصر للمحتوى على حساب الشكل، لكن بغرض الدفاع عن حقيقة الوجود، وعن الإيمان برب الوجود. فالأدب لا يبحث عنه عند الأدباء واللغويين، بقدر ما يطلب عند المفكرين من ذوي القلوب الملهمة التي تحيط بالوجود، وتعرف كيف تتسع قلوبها للوجود كله.. وذوي الخيال الواسع الذين نجحوا في رؤية الدنيا والآخرة، وجهين لحقيقة واحدة.. والذين يملكون إيمانًا عميقًا، وفكرًا تركيبيًّا قويًّا.. أي إن مصدر الأدب، هو الرؤية الكونية الشاملة المتزنة، الكاملة المعاني والمعالم. ■

(*) جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية / الجزائر.

المراجع

(1) ألوان وظلال في سماء الوجدان، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: هيئة حراء، ط١، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٣.

(2) مدخل إلى التنمية المتكاملة "رؤية إسلامية"، لعبد الكريم بكار، ط٤، دار القلم، دمشق، ٢٠١١.

(3) ينظر شروط النهضة، لمالك بن نبي، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، ط٩، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٩.

(4) ونحن نقيم صرح الروح، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: عوني عمر لطفي أغلو، ط١، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٢.

(5) الموازين أو أضواء على الطريق، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، ط١، دار النيل للطباعة والنشر، ٢٠١٢.

(6) فتح الله كولن ومشروع الخدمة "على ضوء نموذج الرشد"، لمحمد باباعمي، ط١، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١١.

hiragate.com

محمد هاشم البشير*

مجاهيل الكون

تعد نظرية الانفجار العظيم، أحد أكثر النظريات شهرة. فمنذ ميلادها على يد الفيزيائي والقس البلجيكي جورج لوميتر، ظلت صامدة على مدى عقود من الزمان؛ وهي تصور نظري تفترض أن الكون ظهر منذ ١٣,٧ مليار سنة، جراء شرارة غريبة حدثت في ذرة صغيرة ارتفعت فيها درجة الحرارة والضغط بصورة لا يمكن للخيال البشري أن يتوقعها أو أن يصفها. وبعد اللحظة صفر المفترضة التي انطلق منها الكون، لم يكن الكون -حسب النظرية- سوى حساء بلازمي ملتهب متمدد، لم يلبث أن برد بسرعة جراء حالة التوسع ليكوّن لنا -فيما بعد بالتكثف- الذرات والنجوم والمجرات. وبسبب بعض المشاهدات التي انتشرت في ستينيات القرن الماضي، خاصة تلك التي رصدت عبر التلسكوبات، استطاعت هذه النظرية أن تصمد أمام بعض الفرضيات المضادة، وبذلك وجدت قبولاً ورواجًا وسط طائفة كبيرة من العلماء.

فتباعد المجرات، وتوسع الكون الذي اكتشفه إدوين هابل، يعد أحد أهم ركائز نظرية الانفجار العظيم. وعزز ذلك، اكتشاف ظاهرة التسارع في توسع الكون الذي نال أصحابه جائزة نوبل للعام ٢٠١١؛ بعد دراستهم لعشرات النجوم المتفجرة المسماة بـ"السوبرنوفا". وحسب هذه النظرية، فإن الكون إذا استمر في تمدده المتسارع، فإنه سيتحول إلى جليد. بالإضافة إلى ذلك، فإن نظرية الحساء الكوني (Mucleosymthese Primrodiale) أيضًا، تدعم نظرية الانفجار العظيم، وتعود هذه النظرية إلى ستينيات القرن الماضي، وتقول إن مادة الكون الحالية تتكون من ٧٥٪ من الهيدروجين، و٢٤٪ من الهيليوم، و١٪ من العناصر الثقيلة، وهو ما يوافق نظرية الانفجار العظيم، كما أن العناصر الخفيفة "الهيدروجين والهيليوم"، هي التي كانت سائدة في بداية الكون، ولم تتكون العناصر الثقيلة إلا بعد ذلك في النجوم وبكميات قليلة. عزز كل ذلك، اكتشاف إشعاع الخلفية الكونية، وهو بمثابة الصدى الضوئي البعيد للكون بعد الانفجار العظيم. وينظر الباحثون إلى هذا الإشعاع الأحفوري، باعتباره أفضل برهان على صحة نظرية الانفجار العظيم. وتعد هذه الركيزة -بالتحديد- من أهم الركائز التي دعمت نظرية الانفجار العظيم، علمًا بأن هذا الإشعاع الضعيف الذي يغرق الكون برمته، لا تفسير له.

اختبار نظرية الانفجار العظيم

إن نموذج الانفجار العظيم الذي يدرس ويرصد التوسع، والخلفية الإشعاعية الكونية، والتركيب الكيميائي للكون، هو نموذج عرضة للتبديل. صحيح أنه حتى الآن يعد أفضل نموذج يناسب البيانات المتوفرة لدينا، لكن المقلق لأنصار نظرية الانفجار العظيم؛ أنه -وخلال العقود الأخيرة- اتسعت الهوة بين النظرية النسبية وعلم الكونيات، ويجد العلماء في كثير من الأحيان صعوبة في التطابق بين الإثنين -خاصة- في ظل النموذج القياسي لفيزياء الجسيمات. فنجد ظهور مصطلحات غيبية؛ مثل المادة المظلمة، والطاقة المظلمة والتي لا يمكن أن تتكون من أي شيء. ولاختبار هذه النظرية، تم تصميم مصادم الهيدرونات الكبير (LHC) في سيرن، المعروف بمختبر أوروبا لفيزياء الجسيمات، وهو مصمم لسحق الجسيمات، ومعرفة الكثير من النظريات التي أفرزتها نظرية الانفجار العظيم. مصادم الهيدرونات، بدلاً من أن يعزز النظرية بيّن بعض التناقضات العجيبة في النظرية، فنقطة بسيطة واحدة من بعض الدراسات في سيرن يمكن أن تنقض نظرية الانفجار العظيم. وما زالت هناك أسئلة محيرة، ما هو سبب توسع الكون؟ ويعزونه أحيانًا إلى ما يعرف بالتضخم، ولكن هذا التضخم أيضًا يخضع إلى نفس السؤال، كما أن هناك أسئلة أخرى تتعلق بما وراء ما نستطيع رؤيته، وعن معدل تسارع الكون، وغير ذلك العديد من الأسئلة التي لا تفتأ تلوح في الأفق.

مجرة أقدم من الكون

أصيب العلماء بالدهشة والحيرة بعد اكتشاف مجرة (HUDF-JD2) التي اكتشفت في العام ٢٠٠٥. فوفقًا للحسابات الفلكية، تبين أن المجرة تبعد عن الأرض بـ١٥ مليار سنة ضوئية، ووفقًا للنظرية فإن صورة المجرة تعود إلى ٧٠٠ مليون سنة بعد الانفجار العظيم. وعندما حسب العلماء كتلة المجرة المعنية، وجدوا أنها تزيد على كتلة مجرتنا "درب التبانة" بأربع مرات. ولكن المفاجأة الكبرى كانت عندما أراد العلماء تقدير عمر النجوم التي توجد في المجرة المكتشفة (HUGF-JD2) وفقًا لنماذج تشكل النجوم التي يعملون عليها باستخدام أجهزة الحاسوب، فوجدوا أن المجرة تشكلت -في أفضل الحالات- بعد ٢٠٠ مليون سنة من وقوع الانفجار العظيم، وفي أسوئها قبل ١٠٠ مليون سنة من حدوث ذلك الانفجار. بمعنى آخر، يمكننا القول إن المجرة يمكن أن تكون أقدم من الكون نفسه، وهذه المجرة، بمثابة أكبر صدع تواجهه نظرية الانفجار العظيم منذ نشأتها.

لا نعرف عن الكون إلا القليل

تؤكد نظرية الانفجار العظيم، أنه لم يكن ثمة فضاء ولا زمن قبل لحظة الانفجار، وأن الفضاء هو الذي تمدد ويواصل تمدده الآن ساحبًا معه المادة. ولكن أغرب ما في النظرية، أن العلماء القائمين عليها، لم يذكروا ماذا حول الكرة المنفجرة.

فنظرية الانفجار الكبير لا تخبرنا شيئًا عن بداية الكون أو نقطة الصفر، وأن النقطة التي انفجرت كانت في فضاء، ثم انفجرت فيه وتكونت المجرات، وأن النقطة هذه كانت تحتوي على الكون كله بما فيه من فضاء. وحسب النظرية، فإن سؤالنا المطروح؛ ماذا حول الكرة المتفجرة؟ ليس له إجابة، لأن النظرية تقول إنه لا يوجد شيء اسمه خارج هذه النقطة أو خارج الكون. إن أكبر ما يواجه نظرية الانفجار العظيم أن ٩٥٪ من الكون -حسبما تراه النظرية- غير معروف الطبيعة، وهو ما يعتبر صدعًا كبيرًا في صرح نظرية الانفجار العظيم. فهل يعقل أن هذه النظرية لا تصف إلا ٥٪ فقط من مادة الكون؟

زيادة رقعة المجهول

يمتد اهتمام الإنسان في الكون إلى أقصى حدود، ولكن بدل من أن تزداد رقعة المعلوم ازدادت رقعة المجهول من هذا الكون العجيب. ففي كل يوم يكتشف العلماء قانونًا دقيقًا أخفاه الله في أحد مخلوقاته، فتتفتح لنا جلائل قدرته ومكنونات حكمته في خلقه. إن الكون بامتداته من ما دون الذرة إلى ما هو أبعد من المجرة، لهو كتاب ينبغي تدبره، لنستشعر قدرة الله وجميل صنعه ودقة تدبيره. ■

(*)رئيس جمعية الفيزياء بجامعة وادي النيل / السودان.

hiragate.com

د. إسماعيل فاضل المشهداني*

علاقة النقد الإسلامي بالتراث والحداثة

إن عالمنا المعاصر بما حققه من تقدم معلوماتي وتقني، يدخلنا في ضرورة التواصل مع العالم أجمع -شرقيه وغربيه- وعلى مختلف الأصعدة؛ لأن تلاقي الثقافات واحتضان بعضها لبعض وصراع بعضها مع بعض، مظهر طبيعي في الثقافة الإنسانية. والذي يهمنا هو الحديث عن الجانب الأدبي، والإشارة إلى حركتي التأثير والتأثر بين الثقافتين الشرقية والغربية. وداخل هاتين الثقافتين أيضًا، كانت هناك على الدوام تيارات أدبية منتقلة من بلد إلى آخر على الرغم من خصوصية كل بلد.

إن الانفتاح على الآخر، صار في عصرنا أمرًا ضروريًّا بسبب تسارع وتيرة التطور في الميادين المختلفة وتشابك العلاقات بين مختلف الأقطار. وفي خضم ذلك كله، يصبح تحديد موقعنا بين "الذات/الآخر"، في حاجة إلى كثير من الوعي بهذه الذات وذلك الآخر.

إن القضية المحورية التي ركز عليها النقد الإسلامي الحديث، هي الحد من فكرة الاستقلالية، لأن فيه مساحات مشتركة بإمكان الجميع الإفادة منها وتوظيفها في ممارساته. ويمكن للناقد أن يفيد -إلى حد ما- من النظريات المختلفة، ولكن يتوجب عليه أن يظل متمسكًا بنظرته الشمولية وموقعه الوسطي. وقد تعاملت الكتابات النقدية الإسلامية مع هذه الإشكالية وفق اتجاهين: اتجاه الرفض واتجاه الانفتاح والتمثل. ويعد الاتجاه الأول مرفوضًا، لأنه يؤدي إلى الطريق المسدود، ويشكل علامة ضعف وإنذار بالسقوط في السطحية، وقد يخفت هذا الرفض ليأخذ مبدأ الحذر الواسع.

أما الاتجاه الثاني فهو الأجدر بالقبول، لأنه يتكفل بازدهار وتفتح الأدب الإسلامي.. وهنا نجد الأدب

يستقي من البلاغة العربية أولاً، والنقد الغربي ثانيًا، لأن الانغلاق في النقد والأدب يعد مرادفًا للتلاشي. وقد استوعب الأدب القديم هذه المسألة استيعابًا منفتحًا، فلم يجد غضاضة من توظيف المعطيات النقدية المنتمية إلى الفكر اليوناني والإغريقي.

ويؤكد د. محمد إقبال عروي قائلاً: "إن نقدنا الإسلامي يتوجب عليه أن يرتاد عوالم متعددة وآفاقًا متنوعة، ليخرج سالمًا من مرحلة العموميات، ويدخل مراحل التفصيل والتبويب والتحليل". والذي يخلص إليه، أن النقد المعاصر يجب أن يعمل في اتجاهين اثنين: الأول يستثمر العطاء البلاغي القديم. والثاني يتحقق بالانفتاح على الدراسات الحديثة في النقد الغربي.

فالانفتاح على النقد الغربي، لا يعني الانصهار فيه أو الانكفاء به، بل يعني سلوك معادلة متوازنة بين النقد العربي والغربي. وقد شكل الانفتاح همَّ نقاد الأدب الإسلامي الأول. وسنفصل القول في بيان علاقة النقد الإسلامي الحديث بالتراث والحداثة:

علاقة النقد الإسلامي الحديث بالتراث

لا ينظر النقد الإسلامي إلى التراث نظرة تقديسية، ولا يعده مصدر المعرفة الوحيد، ولا يفرضه على الواقع دون نقد، وعلى الرغم من ذلك نجده متهمًا بها. ولعل سبب الاتهام، هو علاقة المسلم بالكتاب والسنة، هذه العلاقة التي تنطلق من أغوار النفس، لتنعكس على السلوك الفردي والاجتماعي. وهذا ما يوهم البعض بارتباط المسلم بالماضي وتقديسه على الرغم من وجود فرق جوهري بينهما. ويعزز هذا التوجه كلام محمد بنعمارة الذي يؤكد فيه على عدم عدّ القرآن والسنة تراثًا، وذلك لأن التراث هو كل نتاج أنتجته الذهنية الإسلامية، أما القرآن والسنة فيمثلان الوحي الذي لا يحدّه زمان ولا مكان.

ويلحظ أن هذا الاتهام يتزايد كلما عمق الأدباء توظيفهم للتراث، وإن الاتهام ليس مشروطًا عندهم بتوظيف التراث، وإنما هو مشروط بالرؤية الإسلامية. فقد وظّف آخرون تراثهم، ومع هذا لم يوسم إبداعهم بميسم التراثية أو الماضوية.

إستراتيجية النقد الإسلامي الحديث، تكمن في قبول المفيد والممتع والجميل في التراث أو الحداثة، ورفض المعارض لذاتنا وعقيدتنا الإسلامية، ولذا يجب التمييز بين النجدين، وليس من الصواب القبول المطلق، أو الرفض المطلق للتراث أو الحداثة أبدًا.

فكثيرًا ما تطرح إشكالية الأصالة والمعاصرة على أنها اختيار بين الأنموذج الغربي والتراث، بوصفه أنموذجًا أصيلاً يقصي جميع ميادين الحياة المعاصرة، وهذا ما لا يمكن قبوله. ونجد الناقد محمد إقبال عروي، يواصل دفاعه عن التراث عند التزامه بالمعاصرة، ويناقش الأدباء الذين يتبرمون من تقليد الشعر القديم في الوقت الذي يقعون في تقليد المعطيات الإبداعية الوافدة من الغرب، دون مراعاة لخصوصيات تلك المعطيات من جهة، وخصوصية ذاتنا النابعة من عقيدتنا من جهة ثانية. فهؤلاء وقفوا موقف النفي والإيجاب لثنائية "التراث/ المعاصرة"، فرفضوا الأول وقبلوا المعاصرة على الإطلاق رغم توافر مساحات واسعة في التراث مفيدة وذات غنى معرفي. وحضور أشياء مضرة في المعاصرة تختلف عن خصوصيتنا، وعليه يجب التمييز بين النجدين في تلك المناهج، وقبول المفيد دون الآخر.

علاقة النقد الإسلامي الحديث بالحداثة

يطلق مصطلح الحداثة -بوجه عام- على مسيرة المجتمعات منذ عصر النهضة إلى اليوم، ويغطي مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية. ولقد أدخل التقدم المستمر للعلوم والتقنيات وثورة التكنولوجيا إلى الحياة الاجتماعية، عامل التغيير المستمر والصيرورة الدائمة التي أدت إلى انهيار المعايير والقيم الثقافية التقليدية. وفي ظل هذه الصيرورة الاجتماعية -بمختلف اتجاهاتها- تحدد السياق العام لمفهوم الحداثة، بوصفه ممارسة اجتماعية، ونمطًا من الحياة يقوم على أساسي التغيير والابتكار. ويرتكز المفكرون في تعريف الحداثة إلى فكرتين

hiragate.com

أساسيتين، هما رفض التقليد، ومركزية العقل.

فالحداثة مفهوم متعدد المعاني والصور ويمثل رؤية جديدة للعالم، ترفض الجمود والانغلاق والقبول بمبادئ الانفتاح والتفاعل مع الثقافات الإنسانية. وقد تعني "الحداثة" عند بعض الباحثين؛ مجرد النقل الأفقي الساذج لما أنجزه الغرب خصوصًا، والتخلي المطلق عن التراث العربي بعد أن استنفد أغراضه بزعمهم.

يتساءل د.حسن الأمراني: هل الحداثة شيء نسبي أم مطلق؟ وهل تحمل دلالة زمنية أم لا؟ ليخلص إلى القول بأن المفهوم الزماني للحداثة لا يكفي، وهناك عناصر وقيم غير مرتبطة بالزمن، ينبغي توافرها في العمل الأدبي ليكتسب صفة الحداثة. فالحداثة هي الاستجابة الحضارية للتحدي بالتعبير الصادق الجميل، وإن كل بحث عن مدلول الحداثة خارج الانتماء الحضاري يعدّ ضربًا من العبث. فالحداثة لا تتحقق بقطع الصلة مع الجذور، بل من شروطها الانغراس في التربة التي ننتمي إليها حضاريًا.

ومن جهة أخرى فإن الانفتاح على النقد الغربي لا يعني الانصهار فيه أو الانكفاء به، بل يعني سلوك معادلة متوازنة بين النقد العربي والغربي. وقد شكل الانفتاح همّ النقاد، وذلك لأن الأخذ عن الآخر "ليس خطأ بحد ذاته على الإطلاق، بل العكس هو الصحيح، إذ "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها" كما يحدثنا رسولنا عليه الصلاة والسلام".

ومن الممكن للنقد الإسلامي الحديث، أن يفرد دراسات تعالج نظريات البنيوية والسميائية، ونظرية التلقي ومصطلحاتها كأفق الانتظار، الذخيرة، مواقع اللاتحديد، الخطاطات ووجهة النظر الجوالة، معتمدًا أسلوب التركيز وقصد الإبانة، بما يتلاءم مع السياق العام الهادف إلى إنجاز قراءة عربية في إنتاج نقدي غربي، مع التأكيد على الانفتاح الحذر الذي ينتقي بتروٍّ بعيدًا عن التأثر المبالغ فيه أو التقليد.

أما عن عالمية الفن، فمن الواجب الإفادة من التجارب والأشكال في صياغة تجاربه الإبداعية ورؤاه. وسيعاني النقد -دون انفتاحه- من طغيان التكرار والسطحية التي تجد طريقها في الانعزال وعدم التحاور والتفاعل، فالانغلاق يضر بالنقد والإبداع معا، فبينهما أكثر من همزة وصل، ويعد أولاهما مؤثرًا في الآخر.

ينتقد د. عماد الدين خليل الأخذ المطلق من الغرب، دون مراعاة لخصوصيات تلك المعطيات من جهة وخصوصية ذاتنا النابعة من عقيدتنا من جهة ثانية؛ ليؤكد أن النقد الإسلامي يعرف كيف يفيد من الآخر، ليصنّف تعاملنا مع معطيات الآخر بثلاثة مواقف هي:

١- الرفض: فالأدب اليوناني القائم على الميثولوجيا الوثنية، ظل معزولاً إلى حد كبير عن ذاكرة المسلمين.

٢- القبول: للعلوم الصرفة -كالرياضيات والطب- واعتماد قانون تراكم الخبرات، والإضافة إلى ما قدّمه الآخرون.

٣- التعديل الجوهري: بتعديل ما لا يتفق مع معطياتنا بإخضاع عناصره لرؤيتنا، كترجمة الفلسفة اليونانية كأداة للجدل وليس هدفًا معرفيًا.

فالنقد الإسلامي الحديث، يميز بين نجدي تلك المناهج المتنوعة، ويفيد من المقبول منها دون المرفوض؛ لأن قبول الآخر على الإطلاق على الرغم من توافر مساحات واسعة فيه، شيء مضر بذاتنا الإسلامية.

فللتراث سمات أصيلة يتميز بها عن غيره، وليس من الضروري أن يصطبغ بألوان الحداثة ليكون فاعلاً، فلكل منهما مكانته الخاصة، وإن تشبيه التراث بالمعاصرة لا يسهم في الرفع من شأنه أبدًا، وليس هناك ضرورة لإظهار وجه الشبه بينهما، فقد ترسّخ لدى البعض ذلك التشبيه الذي ليس له من ضرورة.

فإستراتيجية النقد الإسلامي الحديث، تكمن في قبول المفيد والممتع والجميل في التراث أو الحداثة، ورفض المعارض لذاتنا وعقيدتنا الإسلامية، ولذا يجب التمييز بين النجدين، وليس من الصواب القبول المطلق، أو الرفض المطلق للتراث أو الحداثة أبدًا. ■

(*) كلية التربية، جامعة الموصل / العراق.

hiragate.com

د. حسن الأمراني*

يا نفسُ جِدّي

مُنعتُ من الصِّيام عن الطَّعامِ ... فوا لهفي على عهد الصّيامِ
وكان المنْعُ إيذانًا بأني ... قريبٌ من معاقرة الحِمامِ
فيا نفسي نداءُ الموتِ حقٌّ ... فصومي عن مقارفة الحرامِ
لئن أكُ قد حُرمتُ من الصّيامِ ... فمن ذا مانعي حُلوَ القيامِ؟
ألا يا نَفسُ جِدِّي إنّ رحْلي ... وشيك الخطْوِ من قصب الختامِ
أرى السكّين تأكل من عظامي ... ووهْنُ العزم من وهْنِ العظامِ
إذا ما رحْتُ أقرأ في كتابٍ ... تراءى الحرْفُ مختلطًا أمامي
فوا لهفي على زمنٍ تقضَّى ... وقد ضيعته دون اغتنامِ
وكان الدَّرْبُ متسعًا فسيحًا ... فصرت اليوم أعْثُر في الزِّحامِ
إذا داعٍ دعانِ كبَا جوادي ... وطاش السَّهْمُ ما بين السِّهامِ
وأصبح صيّبي الساقي جهامًا ... فوا أسفي على شُحِّ الغمامِ
ويا زمنَ الهوى ودعتَ صبًّا ... قريحَ الجَفنِ متّقِدَ الضِّرامِ
ولم أظفرْ على ما كان منِّي ... بصيْدٍ غير أوهامٍ جِسامِ
وكلّ لَذاذةٍ فإلى زوالٍ ... وكلُّ سَلامَةٍ فإلى سَقامِ
ويذهبُ كلَّ يوم بعضُ بعْضي ... كأني شمعةٌ وسْطَ الظلامِ
إذا أَجريْتُ دمْعي فوقَ خَدِّي ... تهادى الجسم من كُربٍ عِظامِ

(*)رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب

خلف أحمد محمود أبو زيد*

تربية أطفالنا
بين التأديب والتأنيب

من منا لا يريد أن يكون أبناؤه أسوياء بكل ما تعنيه هذه الكلمة؟ فنحن نهدف إلى تربيتهم وتهذيبهم، ليكونوا أعضاء نافعين في المجتمع. فهل حققت تربيتنا ما نريد؟ لنبدأ من البيت؛ فالطفل ينشأ ويشب في بيئة تتعامل في تربيته باتباع أساليب التأنيب دائمًا، فعلى سبيل المثال، إذا ما بدأ الكلام وأراد التعرف على مبادئ الحياة، لا يجد منا نحن الآباء والأمهات من يشرح له كنه الشيء الذي يسأل عنه، ونفترض فيه دائمًا أن يعلم نفسه بنفسه.. وإذا ما أخطأ ضربناه، وإذا ما استوضح نهيناه، وإذا ما ذهب إلى مجلس الكبار نُبِذ كما لو كان شيئًا مقززًا.. لا يُسمح له بالحديث، ولا يُقبل منه تعليق، ويُنتظر منه أن يكون آية في الأدب.. تحت اعتقادنا الخاطئ بأن ذلك هو الطريق الصحيح والأمثل للتربية السليمة.. في حين أن الدراسات التربوية والنفسية، تؤكد على أن اتباع أساليب التأنيب والفضاضة، واستخدام الكلمات النابية والجمل القاسية المحبطة دائمًا مع الطفل، تزرع بذور الخوف والجبن والسلبية في شخصية الطفل، وتجعله يخاف أن يخطو بنفسه حتى لا يقع في الخطأ فينزل عليه العقاب واللوم.. وعندما يكبر ينتظر دائمًا من يقول له افعل كذا، ولا تفعل كذا، ودائمًا يحيل ما يعترض طريقه من مشكلات وأزمات إلى غيره.. وبذلك نقتل في أطفالنا القدرة على التفكير السليم، هذه القدرة التي تمكنهم من الاختيار السليم والصحيح الذي لا يجعلهم يتقوقعون في أماكنهم، أو ينجرفون دون وعي لما يقدم لهم.

فالتأديب الحقيقي للطفل لا يتم بالصراخ، ولا بالضغط على حروف الكلمات قبل إخراجها من الفم، كما أنه لا يحدث نتيجة إسماعهم كلمات صح أو

خطأ وحرام وحلال، ولكن التأديب الحقيقي للطفل، يتم ببطء، وينمو على فترات طويلة، ويحتاج إلى جهد وصبر من الآباء والأمهات، حتى تصبح القيمة التي نريد أن نغرسها في نفس الطفل بعد ذلك، جزءًا هامًّا من بنائه الأخلاقي، يعيش بها ويدافع عنها.. ولا يتم ذلك الهدف إلا باتباع فن الإقناع، وإن من أهم أدوات ووسائل هذا الفن، مناقشة الرأي والرأي الآخر، وأيضًا مناقشة السلوك الخاطئ والتصرف السيئ بهدوء وموضوعية، مع الشرح لهم بالتفصيل -وبصبر- الأسباب التي تدعوهم لرفض سلوك أو مظهر ما، مع الاستماع الجيد لهم، وتفهم ما يريدون فعله، وأسباب اقتناعهم به.

فالمتأمل لسلوكنا مع أولادنا، يجدنا دائمًا نراقبهم وفي عقولنا هدف واحد هو الإمساك بالسلوك الخاطئ والمرفوض، وعقابهم أو تقويمهم.. ولكن ماذا عن السلوك المقبول والتصرف الحسن من قبل أبنائنا، هل نراه؟ هل نفعل شيئًا لتعزيزه وتنميته والإبقاء عليه بالتشجيع والحث والثناء عليه؟

فالأدب في مفهومنا الشاسع أو الشائع، هو الخضوع لمنطق الكبير مهما كان ذلك المنطق أعوج وغير مقنع. والنتيجة أن كل واحد فينا عندما يشب عن الطوق، يريد -بقدر ما يستطيع- أن يخضع من الناس بقدر ما تعرض له من إخضاع سابق. فلو أن البيت تحول إلى مدرسة تُعلِّم الطفل التأقلم مع الأشياء بلين ولطف، من القول وحسن تفسير لِما حوله من ظواهر، لكان الطفل -بعد ذلك- مقنعًا أو مقتنعًا طبقًا للحجج التي يتعرض لها.

ولنا في رسول الله ﷺ خير قدوة وأعظم نبراس في إرساء دعائم ثقافة التأديب الحقيقي البعيد كل البعد عن أسلوب الزجر والتأنيب؛ هذا التأديب الحقيقي الذي يهدف إلى بناء إنسان تغرس في نفسه وقلبه الفضيلة وحسن الخلق باتباع منهج الإقناع.. يأتي رسولَ الله ﷺ شابٌّ يطلب منه أن يسمح له بالزنا، ونرى هنا الرسول ﷺ المربي لا ينهره ولا يعاقبه ولا يؤنبه، وإنما يحاوره؛ فقال ﷺ: "أتحبه لأمك؟" فقال لا، جعلني الله فداك، قال: "كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم"، "أتحبه لابنتك؟" قال لا، جعلني الله فداك، قال: "كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم"، "أتحبه لأختك؟"، وهو يقول في كل واحدة لا، جعلني الله فداك، وهو ﷺ يقول "كذلك الناس لا يحبونه" (رواه الإمام أحمد). وانصرف الشاب من عند النبي ﷺ مقتنعًا بخطورة الزنا وضرره على المجتمع. وأي أخلاق أرقى وأعظم من ضرورة البعد عن القسوة والفظاظة في التعامل مع الطفل وإشعاره بالحب والحنان؟ فعن أبي هريرة ﷺ قال، قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدًا، فنظر رسول الله ﷺ إليه ثم قال: "من لا يرحم لا يُرحم" (رواه البخاري)، فيتغير الأقرع بن حابس إلى نقيض ما كان يفعله، ذلك أن الابن أو الابنة، قد يحتاج إلى قبلة أو حضن من الأب أو الأم باعتبار ذلك حاجة نفسية واجتماعية لا تقل عن حاجة الطفل إلى الغذاء. ومن هنا يلفت النبي ﷺ أنظارنا إلى ذلك عند التعامل مع الطفل، ليشعر بالحب والحنان والرعاية والاهتمام التي تجعل الطفل يطرح كل ما يجيش داخل نفسه من تساؤلات، طالبًا الرأي والمشورة من الوالدين اللذين يحيطانه بكل رعاية واهتمام، ويسيران به خطوة خطوة نحو الرد السليم الذي لا بد أن يكون مقنعًا للطفل.

إذن، إن أهم ما نحتاجه بالفعل، هو بذل الجهد والوقت في تربية أبنائنا بصورة صحيحة قائمة على التأديب الحقيقي، الذي يجب أن يتم بالإقناع ومناقشة الابن. فإن أهم شيء يجب علينا أن نفعله قبل أن نربي ونعلم أنفسنا لنكون آباء وأمهات، وقبل أن نربي ونعلم أولادنا ليكونوا أبناء، يجب علينا أولاً ألا نزرع الخوف والرهبة في قلوبهم بمعاملتهم بصورة مهينة تُفقدهم ثقتهم واحترامهم لأنفسهم تحت دعوى أن ذلك هو الطريق الصحيح لتقويم الاعوجاج في سلوكهم، ولكن علينا أن ندرك يقينًا أن زرع الحب في قلوبهم بالحوار الطيب واللفظ الحسن مع إظهار المشاعر النبيلة التي أودعها الخالق ﷻ في قلبي الأبوين، ينير لهم الطريق إلى فعل الصواب والتحلي بالآداب والأخلاق الفاضلة. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

أ.د. عبد القادر بوعرفة*

أرجوك لا تحدّثني عن عظيم خدماتك وجسيم تضحياتك. ولكن قل لي بربّك! هل تستطيع أن تقول "هذا من فضل ربي"، وتحيل ذلك كله إلى رفاق دربكَ؟ هل تستطيع أن تكون في الصف الأول عند البذل، وفي الأخير عند الأجر؟ حدثني عن ذلك حتى تتفتح الأزهار في قلبي فرحًا.

الموازين

الجمال وسؤال المقصد في القرآن الكريم

تتمركز الرؤية الجمالية، من خلال ما ينتجه الإنسان ضمن فضاء ثقافي واجتماعي متنوع ومتغير، حيث يلعب المخيال الدّور البارز في إظهار مظاهر تمثُّل الجمال في الحياة اليومية والأعمال الفنية الكبرى والصغرى على السواء. نعتقد أن لكل مجتمع فلسفة جمالية تتباين من مجتمع لآخر، وتتشكل تلك الفلسفة من مجموع الروافد الدّينية والقيمية التي يتشبع بها أفراد الجماعة. فليس الجمال سوى ما تضفيه الجماعة على الموضوع حتى ولو كان الحكم فرديًّا، ونقصد أن الجمال -من حيث كونه معطى أوليًّا- هو تجربة فردية، لكنها من حيث الممارسة تجربة اجتماعية؛ ذلك أن اللاشعور الجمعي، يؤطر العملية الإبداعية ويوجهها توجيهًا غير مباشر. ويمكن القول إن حتى الفنان المتمرد على قيم مجتمعه، لا يمكنه أن يتحرر من سلطة اللاشعور، فعمله الفني هو في الأخير ممارسة لحق تأويل حالة الرفض والقهر التي يشعر بها. ومنه فالعمل الفني -يعكس في كل الحالات- الواقع الاجتماعي القائم أو المُفترض.

إن الحديث عن الجمال هو حديث عن التّعبير والقيمة معًا؛ فهو تعبير عن الماهية بالماهية، فالتعبير جوهر إنساني به يُعرَف الإنسان كمشروع ميتافيزيقي ووجودي. إن الإنسان خلق ليعبر عن ذاته لتجسيد أنطولوجية التّحدي بعد سؤال الملائكة، فالله خلق الإنسان ليبين للمخلوقات قدرته على خلق نقيضهم؛ فالطاعة نقيضها العصيان، والإيمان نقيضه الكفر، والإذعان نقيضه التمرد، والحياة نقيضها الموت.. وتلك النقائض لا يمكن أن يعبر عنها الإنسان إلا من خلال ملكة التعبير. فالملائكة لم تستطع أن تصف الأشياء وتسميها، بيد أن آدم عليه السلام استطاع أن يسمي الأشياء وأن يصفها، ولم يكن ذلك إلا من خلال التعبير. والتعبير ذاته يتخذ نمطية معينة نسميها عادة بالأسلوب، فالتعبير هو قدرة المبدع على التفرد بأسلوب ما، ويصبح الأسلوب هو الذي يعطي للفنان بصمته الخاصة، ومن ثمة يصبح الأسلوب -كمفهوم- أهم العناصر في دراسة الفن والجمال: "مفهوم الأسلوب مفهوم لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة الفن، لكنه مع ذلك مفهوم محير أيضًا، وذلك لأن الكلمة لها معان عدة، ففي العادة تشير كلمة أسلوب إلى الفن الخاص بفترة تاريخية معينة"[١]. ولذلك

نقول في أغلب الأحيان "أسلوبي في التّعامل"، أو نصف العمل المُميز لفنان بقولنا "هذا أسلوبه في التعبير".

الجمال هو تعبير عن ما هو كائن

إن الجمال تعبير، سواء كان بالجسد أو الكلام أو الكتابة أو غيرها من وسائل التعبير.. بيد أنه تعبير يحمل خصوصيات وسمات مفارقة للتعبير العادي؛ ونقصد أن الجمال يتجه صوب المعنى الذي يتجلى في صور متعددة ومتنوعة. إن الصورة الجمالية هي التي تفتكّ من الآخر القيمة والموقف، بغض النظر عن طبيعة القيمة والموقف. ولذلك فالجمال ينتقل من حيث كونه حالة تعبير إلى كونه أيضًا قيمة، فالقيمة هي ما نضفيه نحن على الموضوع من حسن أو قبح، جلال أو جمال، عندئذ يُعرف التعبير بالقيمة التي أطلقت عليه، كما تصدر القيمة على حسب التعبير ذاته.

نؤكد أن التعبير لا يمكن أن يكون منطقيًا، لكنه يمكن أن يكون استاطيقيًا؛ فوظيفته الأولى التواصل والتخاطب، ووظيفته الثانية التأثير على الغير تأثيرًا وجدانيًا، ونقصد: "التعبير لا يكون منطقيًا ألبته، ولكنه يكون مؤثرًا دائمًا، بمعنى أنه غنائي وخيالي. ومن ثم لا يكون التعبير استعاريًا لأنه دائمًا أصيل، فهو لا يكون بسيطًا على الإطلاق بمعنى فقدان الصنعة، أو مجملاً بمعنى كونه ينوء بعناصر خارجية، ولكنه يكون دائمًا مجملاً بذاته أو في ذاته"[٢].

نؤمن بأن الجمال حركة تعبيرية ترتبط بسؤال المعنى والمقصد، وأن كل تعبير يتغذى من نظرية المقاصد الاجتماعية. فالعمل الفني ينخرط في تشكيل تصورات الجماعة، عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها، عن الفوضى والنظام، عن التقدم والتخلف.. وبصفة عامة هو تعبير عن ما هو كائن وما ينبغي أن يكون.

نحاول من خلال المولج، إثبات استقلالية كل جماعة بشرية برؤية جمالية للعالم.. فليس هناك عنصر بشري يمتلك التعبير الجمالي والفني فقط، بل كل الشعوب، لها قسمة عادلة من الممارسة الجمالية والفنية في الوجود. إن الفلسفة الغربية تحاول جاهدة -من خلال مقولة المركزية- أن تضع الجمال كعلم

إن نظرية المقاصد هي محاولة فلسفة النص الديني، والغاية منه البحث عن الحكمة من وجود الشيء ضمن فلسفة الخلق. فالله تعالى لم يخلق الموجودات إلا لغاية وحكمة، فلا وجود للموجود إلا ضمن قوانين العناية الربانية بالموجدات.

أوربي، بل تحاول أن تضفي صفة الجمالية على ما هو أوربي فقط. نتفق مع جل الدارسين على أن علم الجمال تأسس في الغرب في العصر الحديث على يد "باومجارتن" سنة ١٨٠٠، وهذا يعني أن الجمال -قبل ذلك- كان يُدرس كجزء من الفلسفة؛ ففلاسفة الإغريق لم يتحدثوا عن الجمال كعلم أو فن نبيل، بل تحدثوا عنه كإدراك وشعور، ثم كقيم جمالية. والمسلمون أنفسهم لم يصنفوه كعلم، بل تحدثوا عنه من ثنائية الحسن والقبيح. فغياب الجمال كعلم، لا يُنقص من تمثل الجميل والجليل، أو يعدم النزعة الجمالية عند المرء.

الجمالية نزعة إنسانية

إن الجمالية نزعة إنسانية متجذرة في كل شعوب العالم، لكن يختلف حضورها من شعب لآخر، ولذلك لا يستطيع الإنسان توحيد المعايير التي تُحدد معنى الجمال. فليس هناك قاعدة أو مسطرة نفرّق بها بين جميل وجميل، بل التفرقة معيارها التجربة والفطنة والدراية.

إن مكانة الجمال ليس فقط في التعبير الفني السائد اليوم، بل مكانة الجمال تنكشف في مضامين الحياة، وخاصة الدين والسياسة. إن الثقافة الإسلامية ثقافة جمالية، ومكانة الجمال يمكن التعرف عليه في كثير من المواطن الإبداعية، وسأقتصر في هذا الموضوع على موطن واحد، وأقصد نظرية المقاصد.

اخترت القرآن الكريم لأحاور بعض آياته جماليًا، لكونها تناولت المسألة الجمالية كمنظومة شاملة تتمأسس على نظرية المقاصد. فإذا كان الجمال ضمن المقاصد الخمسة للشريعة، فهو ركن من أركان الإسلام، لا نقصد الأركان التعبدية.

hiragate.com

الجمال: سؤال البدء

الحديث عن الجمال في الفكر الإسلامي، لا ينجر عنه القول بالضرورة بوجود علم جمال إسلامي، بل نحن في هذا الموقف نتفق مع المفكر سعيد توفيق[٣] عندما يعلن تهافت مفهوم علم الجمال الإسلامي، بل نريد التّحدث عن حضور للنزعة الجمالية في الفكر الإسلامي. فالمسلمون لم يصنفوا الجمال كعلم مستقل بذاته، بل صنفوه كقسم من أقسام الصناعات النظرية والعملية[٤].

يمكن التعامل مع المسألة الجمالية في الفكر الإسلامي من منطلقات متنوعة ومختلفة، باعتبار أن الجمال في ذاته عصي على التعريف، وكل تعريف للجمال هو قتل لمفهوم الجمال. إن الجمال لا يمكن اعتباره علمًا ولا فنًّا، بل هو حالة تتوسط الأمرين معًا.

إن محاولة وضع الجمال كعلم، تصطدم بطبيعة المسألة الجمالية المعقدة، فالجمال ينفر من القيد والقانون وإن احتكم للقيمة، فكل محاولة لترويضه وتكبيله، ستنتهي إلى اللاجمالية أصلاً[٥].

نقر منذ البداية، أننا لا نريد الحديث عن علم جمال إسلامي، بل نريد الحديث عن نظرية جمالية تستلهم مقاصدها الجمالية من الإسلام كمنظومة فكرية شاملة. إن عدم عناية فلاسفة الإسلام بالجمال، تكمن في عدم تصنيفه كعلم مستقل بذاته مثلما صنفوا الصناعات الأخرى. أما ممارسته فهي أصيلة في أدبهم وفنهم وصناعاتهم وعمرانهم، وكل ما تركوه من آثار، دالة على حب الجمال. والمنطلقات التي وضعناها لفهم الظاهرة الجمالية في الثقافة الإسلامية تنطلق من أربع قواعد إبستمية:

أ- اعتبار الجمال ملكة طبيعية، تتكشف من خلال لحظات نادرة من الوعي المتعالي، ونقصد أن الجمال وليد الإلهام كما هو الحال عند الشعراء، والإشراق كما هو عند الصوفية، والحدس كما هو معروف عند الصُّناع وغيرهم من أرباب الحرف والمهن. وذهب أبو حيان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة إلى اعتبار الجمال ملكة إنسانية.

ب- الجمال شعور خالص، وإحساس شاعري بالموضوع، يؤدي إلى التعاطف معه تعاطفًا ذاتيًّا، وقد يكون الشعور والإحساس يعبر عن حالة تنافر. ولقد حاول "جورج سانتيانا" أن يقرّب تلك الصورة من خلال توضيحه العلاقة الوطيدة بين الجمال والشعور.

جـ- ربط الجمال بالقيمة في ذاتها، فالجمال متعال عن المنفعة والغرضية، بل هو حكم عقلي يستند على الشيء في ذاته.

د- ربط الجمال بسؤال المقصد، لكون الشارع (الله) حكيم وبديع، ولا يصدر عنه إلا الجميل والجليل. فكل ما هو موجود في الوجود جميل أو جليل، حتى القبيح يُعبر عن صورة جمالية مغايرة للمألوف.

ومن خلال تلك المقدمات يمكن أن نلج إلى الموضوع، بحيث ننطلق من نظرية المقاصد كباراديغم، أو معلم يوصلنا إلى فهم الظاهرة الجمالية، والوقوف على بنيتها وقيمها. ولذلك نضع السؤال التالي: أين نضع الجمال في السلم المقاصدي؟

الجمال ونظرية المقاصد

ندرك جميعًا أن نظرية المقاصد تركت أثرًا كبيرًا على الفكر الإسلامي منذ ظهورها. ولا نريد أن نُحول الموضوع إلى بحث في أصول الشريعة، ولا تتبع نظرية المقاصد بدءًا من الشاطبي إلى الطاهر بن عاشور، بل نحاول أن نعطي البُعد الفلسفي لنظرية المقاصد.

إن نظرية المقاصد هي محاولة فلسفة النص الديني، والغاية منه البحث عن الحكمة من وجود الشيء ضمن فلسفة الخلق، فالله لم يخلق الموجودات إلا لغاية وحكمة، وقس الأمر على الأمر والنهي، فلا وجود للموجود إلا ضمن قوانين العناية الربانية بالموجدات.

إن البحث عن المقاصد في متون الشريعة يُعرب عن إعمال العقل في النقل، ورد الأحكام إلى أصولها، فالحكم -مهما كانت طبيعته- يحتفظ في ذاته بقصدية ما، وتلك القصدية هي التي تساعدنا على وضع القيم في سلم، وبالتالي وضع حركة وفعل الموجود في سلم القيم.

يعلم الجميع أن نظرية المقاصد تقوم على خمسة قواعد رئيسة: حفظ "النفس، العقل، العرض، الدين، المال"، وإذا ربطنا تلك القواعد بالجمال والجمالية،

hiragate.com

فإننا نصل إلى ربط الجمال بكل القواعد؛ لأن الجمال هو تمثل الخالق في المخلوق تمثّلَ ذوق لا محاكاة. فالجمال في النفس، حين تكون الحياة من أقدس واجبات الإنسان، فالإضرار بالنفس نفي للجميل.

إن الجمال بالرغم من الشعرية والشاعرية والتجربة الفردية، يرتبط بالعقل. والمحافظةُ على القيم الجمالية تفرض المحافظة على العقل. فالمجتمع الذي لا يحفظ العقل من آفاته، سيقتل كل القيم الجمالية لديه؛ يكفي مثالاً على ذلك، أن المخدرات تُعتبر من أهم العوامل المُذهبة للعقل، وبالتالي المذهبة للشعور بالجمال والحادة من إنتاج الجميل.

إن الجمال تحركه جملة من العوامل وعلى رأسها العامل الديني، فالدين -من حيث كونه اعتقادًا وإيمانًا- يغذي الذّات بدفعة حيوية، تجعل الذّات تفتق مواهبها سواء من أجل إضفاء قيم إيمانية على الشيء أو من خلال تقديم المعتقد كما ينبغي أن يكون. فبناء المساجد يتم دومًا ضمن الهاجس الجمالي والفني، لذا يتنافس المؤمنون في فن العمارة والزخرفة.

سلّمنا سابقًا أن الجمال لا يرتبط بالغرضية أو النفعية، لكن لا تمنعنا تلك القاعدة من الاعتراف أن المال من أهم العوامل المُحركة للحركة الفنية، وكل حركة فنية، ينبلج عنها الجمالي؛ فروائع الشعر العربي كانت بنت الدينار والجائزة، كما أن أعظم اللوحات الفنية في الغرب كانت وليدة العطاء المادي.

والعرض بيت القصيد في المسألة الجمالية، فـ"فرويد" يعتقد أن الإبداع والتعبير، مركزه الليبيدو؛ أي أن الإنسان في عملية إبداع هو يعبر بالضرورة عن غرائزه والمكبوتات، وأقوى تلك الغرائز هي الغريزة الجنسية، لذا فالعرض يرتبط بالتعبير الجمالي، سواء عند تقديم الجسد كشيء مقدس وثمين، أو تقديمه كشيء مدنس الغاية منه المتعة وتحصيل اللذة.

إن نظرية المقاصد تتحد مع المعطى الجمالي من منظور أنها تتجه صوب معرفة الغاية والحكمة من وجود الشيء، وهو يحاول أن يُعبر عن ما نتمثله عن الموجود إبان تجربتنا الفردية، فليس هناك أبدع مما كان.

إن القرآن يؤسس لمفهوم الجمال الحر، فالجمال غير مقيد بقوانين فكرية ولا منطقية، بل كل شعور بجمالية شيء ما، هو إلا إدراك حدسي عيني للجميل. إن الجميل ليس جميلاً بذاته، بل الجميل جميل بتجلياته.

حراء

الجمال وخماسية القرآن

يؤمن كل مسلم بأن الله ﷻ هو الجميل والجليل في الوقت ذاته، جماله يتجلى في كل سور القرآن، وخاصة تلك التي تصف بدقة متناهية الجنة وما فيها من نعيم، لا عين رأته ولا أذن سمعته، ولا خطر بفكر بشر. وقد جاء في كتب السلف: "إن الله جميل يحب الجمال" بعد قول الرجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة وكثير من ذلك، وهكذا لو ترك الناس كلهم ذلك لكان مكروهًا"[٦].

يطلق التصوير الفني في القرآن الكريم العنان للخيال ليرسم الجنة كما أدركها لحظة قراءته النص، ويتجدد الخيال مع كل معنى محدوس في لحظة تأمل. إن كل قارئ للنص يصور الجنة على مقاسه وخبرته، عندئذ يختلف الناس في إدراك الجنة وفق قوة الإيمان المختزنة في ذاتهم. إن الإبداع الحر يكمن في تلك العملية، ونقصد عملية إبداع عالم ما وراء الطبيعة (الغيب).

لنتأمل التصوير الرباني للجنة في الآية التالية: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾(الكهف:٣١).

إن مقال الجمال والحسن، يتجلى في تحريك أشواق النفس البشرية لرحمة الله وحسنه والفوز برضاه. والحال يمكن مقارنتها بشعراء الغزل، فهم يبدعون القصيدة إما حبًّا وطمعًا في الوصال، أو خوفًا من الهجر. والمؤمن ذاته يكون بين الحالين، فحين يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِمَا عَيْنَانِ

hiragate.com

تَجْرِيَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾(الرحمن:٤٦-٥٨)، ثم قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ مُدْهَامَّتَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(الرحمن:٦٢-٧٨)، يأخذ الشوق المسلم إلى العالم الموصوف لا المشهود، طامعًا في لذّاته أولاً، ثم في إدراك ما ليس بكائن، وثالثًا محاولاً إدراك الذات التي أبدعته في التصوير، ثم أبدعته في الوجود واللاوجود معًا.

إن الجمال في جوهره هو محاولة تصور العالم وفق ما نراه في لحظة الوعي الخالص كما يرى "كانط". أما مقام الجلال فينقل المشاعر الإنسانية من عوالم الحسن واللذة إلى عوالم الخوف والرهبة؛ فالجليل له مقام الجمالية بالجلالية لما يمليه علينا من قسوة التصوير ورهبة التعبير وشدة الحال، فإذا كان وصف الجنة بتلك الدقة والبراعة في التصوير والتعبير، فإن وصف النار لا يعدم جلالية وجمالية التصوير الفني، ولنتأمل قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۞ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۞ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۞ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾(المدثر:٢٦-٣١)؛ إن المشهد الجلالي يرتسم من خلال التداخل الفني والعلمي في بنية وصف سقر، فمن جلالة التعريف إلى جلالة الوظيفة، فالعبارة ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ لا نجد لها نظيرًا في البيان العربي، إنها عبارة صورت المشهد تصويرًا بليغًا بحيث لا يمكن لأي خيال أن يرسم صورة عن سقر.

وتصوير المشهد البشري لا يقل فنية، فلننظر كيف صور الله تعالى البشر: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۞ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾(المدثر:٥٠-٥٢)؛ إن فهم الترابط بين المعطى الجمالي والمعطى الشرعي يكمن في معرفة نقاط الارتباط أصلاً، والتي سأحددها وفق التراتبية التالية، حيث يتحرك الجمال من المنظور القرآني ضمنها:

١- المنافع= اللذات - الأفراح - المباهج - الأذواق - القبح.

٢- الأحوال= الإشباع - الرضا - السرور - الوجد - الوعي.

٣- الدرجات= الحس - الحدس - العقل - العرفان - البيان.

٤- الغايات= الحاجة - النزوع - المدرك - المشاهدة - الخبرة.

٥- الوسائل= العمل - الاستبصار - التأمل - الزهد - المعايشة.

نعتبر من خلال فهمنا للقرآن، أن التجربة الجمالية لا يمكن أن تتولد إلا في تضافر جميع الشروط الموضوعية والذاتية؛ فالفرح والبهجة من أهم الدوافع في عالم السماع. فالموسيقى عمل جمالي الغاية والهدف بالرغم من ارتباطه بغاية نفعية عرضية هي التّعبير عن فرح وتحقيق بهجة النفس، نستشف ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۞ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(سبأ:١٠-١١)، وقوله أيضًا: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۞ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾(الأنبياء:٧٩-٨٠)، وقد ذهب المفسرون إلى القول بأن الآيات التي نزلت في حق سيدنا داود عليه السلام،

hiragate.com

كلها تؤكد تلك المسحة والهبة الجمالية التي ميّز الله بها عبده داود عليه السلام؛ فكان آية في الصوت الرخيم، ومعجزة في العزف بالمزامير، ثم آية في الصناعة والإتقان خاصة الدروع الحديدية. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد في معنى الآية: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾(ص:١٨)؛ أي عند آخر النهار وأوله، وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدًا، بحيث إنه إذا ترنم بقراءة كتابه الزبور، يقف الطير في الهواء يُرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيًّا.

ولا يقف الأمر عند الصوت الجميل والعذب، بل حتى السماع في مقام الحزن والفرح نكتسب منه بهجة جليلة وألمًا لذيذًا، فأدب الرثاء خير دليل على ذلك.

وفي عالم محاكاة الطبيعة يكون الحس هو سيد الموقف وخاصة نعمة البصر، ولا يمكن للحس أن يُعبر عن الجميل أو الجليل إلا إذا كان الحدس يفيض من عمق المعاناة والمعايشة.

يمكن من خلال تتبع النص القرآني إدراك أن الجمالية تنتقل من البسيط إلى المعقد؛ فجمالية "مثَال الذّبابة" في القرآن، يعبر عن أبسط أشكال التعبير مقارنة بمثال المصباح أو المشكاة. إن النص القرآني يعلمنا أن الجميل قد يوجد في اللاجميل أصلاً، فوصف جهنم يعتبر في القرآن آية في التصوير الفني بالرغم من أن جهنم تحمل معنى سلبيًّا وقبيحًا.

إن القرآن يؤسس لمفهوم الجمال الحر، فالجمال غير مقيد بقوانين فكرية ولا منطقية، بل كل شعور بجمالية شيء، ما هو إلا إدراك حدسي عيني للجميل. إن الجميل ليس جميلاً بذاته، بل الجميل جميل بتجلياته، أي إن التّجلي هو الذي يحدد الجمال.

ومن خلال ما سبق نقول بأن الجمالية في القرآن الكريم، تفك التعارض القائم بين أحكام الناس. فالجمال إدراك وشعور وغاية، وكلما كان الإنسان أكثر إدراكًا ووعيًا بالموضوع كغاية، كلما كان أكثر تمثلاً للجمال ووعيًا بالجميل، وفي هذا المجال نتفق مع الدكتور إسماعيل عز الدين، حين يقر أن مشكل التعارض بين الأفراد في الوعي الجمالي إنما تعود لطغيان وجهة النظر الشخصية على المعطى الإستطيقي: "وفي اللغة العادية يحدث الشعور أحيانًا بالنفور من وصف تعبير ما بأنه جميل، ما لم يكن تعبيرًا عن شيء محبب إلى النفس (Sympathetic). ومن ثم كانت المعارضات الدائمة بين وجهة النظر الإستطيقي أو الناقد، ووجهة النظر الشخص العادي الذي لا يستطيع أن ينجح في أن يُقنع نفسه بأن صورة الألم والرداءة والانحطاط (Basenss) يمكن أن تكون جميلة، أو أنها على الأقل لها الحق في أن تكون جميلة، شأنها في ذلك شأن الممتع والخير (Good)"[٧].

نكتشف في سورة يوسف عدة مستويات للجمالية، ويمكن القول إن النظرية الجمالية يمكن أن تتمأسس على تلك السورة. فلقد حضرت جمالية الحكي والتتابع، والعقدة والخوف، وجمالية الجسد الذكري والأنثوي، وجمالية الشهوة والرغبة، ثم جلالة الرهبة والإيمان، كما عكست جمالية الألم والصبر، الفتنة والغربة، ثم جمالية اللقاء والانفراج. ولذلك قال الله تعالى في السورة ذاتها: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(يوسف:١٨)، لأن ألم الفراق تحول إلى وعي بالجمال والجلال معًا. ■

(*) أستاذ محاضر بقسم الفلسفة، جامعة وهران / الجزائر.

الهوامش

(١) التفضيل الجمالي، لعبد الحميد شاكر، منشورات عالم المعرفة، الكويت، ط١، ٢٠٠١، ص:٥٥.

(٢) الأسس الجمالية في النقد العربي، لإسماعيل عز الدين، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٢، ص:١٦.

(٣) تهافت مفهوم علم الجمال الإسلامي، لتوفيق سعيد، دار قباء للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٧، ص:١٥.

(٤) انظر كتاب القنوجي الموسوم: الوشي المرقوم في أسماء العلوم والفنون.

(٥) سؤال المعنى، لعبد القادر بوعرفة وآخرون، دار الغرب، وهران، ط١، ٢٠٠٥.

(٦) الموافقات في أصول الشريعة، اللخمي إبراهيم بن موسى، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ج١، ص:١٣١.

(٧) الأسس الجمالية في النقد العربي، لإسماعيل عز الدين، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٢، ص:١٩.

hiragate.com

د. عبد الحميد عشاق*

في تجديد الخطاب الدعوي (٢)

العمل الدعوي بـ"فقه التوصيل" بدل الخطابة

في عالم يعيش حالة مستمرة من التغير السريع المذهل، وحالة من التراكم المعرفي الواسع، وانفجار المعلومات وازدحامها وتوالدها؛ عالم القنوات الفضائية والإنترنت والطرق الإلكترونية السيارة التي تنقل البلايين من الأفكار والمعلومات في كل ثانية.. في هذا الخضمّ اللجّي الذي يضج بالحركة الفكرية استقراء وإنتاجًا ومناقشة وتمحيصًا للمفاهيم، وتخطيطًا للبرامج، وتشخيصًا للقضايا، نجد خطاب الدعوة على هامش حركة التاريخ، كلٌّ مُعَوِّلِها على الأساليب البائدة في الوعظ والإرشاد والخطابة. وللأسف حتى هذه الأساليب لم تستثمر في الاتجاه الصحيح بطريقة مؤثرة وإيجابية. فما يزال الخطاب الدعوي يعاني عندنا هزالاً في الأداء والموضوع معًا؛ فسطحية التناول، وتهلهل العرض، والتحيز العاطفي المتعجل، والركون إلى الرواية والاجترار، والعجز عن إعمال طرق الإقناع والبرهان، والقفز على النتائج بقوة الوشائج الصوتية لا بقوة النظر في الأدلة، وبناء النتائج على المقدمات.. كل أولئك صار وصفًا وميسمًا لكثير من الأدبيات والخطابات الصادرة باسم الدعوة.

إن الأخذ بفقه "التوصيل" في الدعوة، فريضة شرعية وضرورة إنسانية ومقتضى واجب الوقت، وهو يعني ما يلي:

أ- أن تقدر الدعوة حاجتها الضرورية إلى التوجيه التواصلي السليم أكثر من التوجيه الخطابي، وأن تعي الحد الفاصل بين فقه التوصيل وبين الخطابة، فالأول يركز على "إدارة" خريطة المدركات والبناء النظري والسلوكي المتكامل للمتلقّي، بينما التوجيه الخطابي يركّز على إثارة الانفعال، ويستجيش ويناشد العاطفة.. الفقه "التوصيلي"، يتعامل مع المصطلحات والخلفيات والمفاهيم والنماذج والمناهج والأنماط المعاصرة، ويجتهد في التحديد العلمي والموضوعي للمشكلات

والظواهر، ويفتق الحلول المناسبة لها. أما التوجيه الخطابي، فيتعامل مع الأخلاق والفضائل الذاتية والروايات والمناقب في نطاق يغلب عليه الاجترار والتقليد والبحث عن "الانفعالات" ومن أيّ شيء تكون.

إن فقه "التوصيل" يعني مواجهة تحدّي البناء الثقافي والمعرفي للوعي المجتمعي، باعتباره محركًا للإرادة والفعل في مناشط الحياة الإنسانية بمختلف أبعادها. ولا ريب أن ذلك يستوجب الكثير من الشجاعة في نهج ثلاث خطوات رئيسة: شجاعة النقد الذاتي، وشجاعة مواجهة الأفكار الخاطئة والمغلوطة الجاثمة على وعينا الثقافي وميراثنا التاريخي، وشجاعة البناء والإسهام الإيجابي في ترسيخ أصول فكر تجديدي يفتح المجال أمام قيم ونُظم ونماذج جديدة كفيلة بإخراج مجتمع المعرفة والكرامة والسّلم والتنمية.. وهو مسار إصلاحي عميق مرتبط بمسار إصلاح المجتمع برمته، وبالتحوّلات الحاضرة والمستقبلية التي ستشهدها المجتمعات المسلمة، كما تبدو وثيقة الصلة بتجديد مفهومنا "للداعية"، والدّور والرسالة التي سيقوم بها في المجتمع. وفي جميع الأحوال، إن حاجة الأمة والدعوة في المستقبل لصفوة من أرباب الفقه الواعي الحيّ، تتحلّى بالعلم والبصيرة والفطنة أكثر إلحاحًا من الكثرة الكاثرة من الخطباء.

ب- إن ما يصلح من أساليب الخطاب في زمان ما أو مكان ما، لا يصلح بالضرورة لكل الأزمنة والأمكنة، إذ لكل عصر معاييره ومفاهيمه ومسلّماته الثقافية التي تشكل درجة قبول الناس للخطاب، وغالبًا ما تكون تلك المفاهيم والمعايير جزءًا من الذوق الثقافي العام. فعلى سبيل المثال يتميز الخطاب التواصلي المعاصر، بعنايته الفائقة بدلالة المجاز أو الدلالة الرمزية في استعمال اللغة، أو الأبعاد المتوارية للعبارة، ذلك لأن السياق الثقافي المعاصر يبدي نوعًا من الامتعاض والنفور من الوعظ البارد، والإرشاد المباشر، والفهم "الحرفي" للّغة. وهذا يعني أن الصيغ التقريرية المباشرة، والإفراط في ذكر المناقب والمثالب، والإسراف في الترغيب والترهيب، والمبالغة في الحكي والسرد، لم يعد مقبولاً

إن بؤرة التجديـد ومنبت أرومتـه، إنما تتمثل في بناء المفاهيم وصوغها صياغة مسـتقلة مبتكرة وملهمة، أو مراجعة المفاهيم السائرة في مجالنـا التـداولي، لتهذيبهـا وتنقيحها وعرضها من جديد عـلى أصولها من جهة، وعلى المآلات والنتائج بحسب ميزان المصالح والمفاسد من جهة أخرى.

حراء

بمعيار النظام الثقافي التواصلي الغالب، بل هو ينظر إلى قوة البيان وبلاغة الخطاب على أنها القدرة على صقل الفكرة المتماسكة المقاربة والمفسّرة للمشكلة، ودفع شوائب الغموض عن المفاهيم التي يتم معالجتها ومناقشتها. فصار الخطاب التحليلي المبني على مقدّمات صحيحة وبأسلوب رشيق ولغة ناعمة، أدعى للقبول والوثوق به من الخطاب البلاغي المرتجل الذي لا يسنده تدبّر سابق وفكر ناظم.

جـ- من بين الصّعوبات التي تواجه موضوع الخطاب الدعوي -خصوصًا في أبعاده الفكرية و"المضمونية"- قضية المفاهيم. فالتعامل مع الواقع باعتباره شرطًا لتطبيق الأحكام وتنزيل القيم، ليس مسألة جزئية؛ لأن الربط بين جزئيات الأحكام وكلّي الواقع، يحتاج إلى وسيط معرفي ومنهجي ضروري يتمثل في "بناء المفاهيم"، أو ما يسمّى "بالتأصيل الكلّي". وهي عملية ما فتئ العلماء يضطلعون بها وهم يؤسّسون علوم الكلام والأصول والفقه واللغة وغيرها.. فقد عمدوا -ابتداء من القرن الثاني الهجري- إلى وضع المصطلحات وضبط المناهج وتقرير القواعد. وكان هذا الصنيع منهم، محاولة اجتهادية لاستقراء المفاهيم وضبطها وتحريرها بحسب السقف المعرفي الذي بلغه مجتمعهم وتجربتهم الحضارية.

ونحن اليوم بأمس الحاجة إلى ضبط المفاهيم وتحريرها ومراجعتها بناء على ملاحظة طبيعة الواقع المعاصر المستجدّ، وخصائصه وقوانينه الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والعالمية. ومن ثم، فإن بؤرة التجديد ومنبت أرومته، إنما تتمثل -بالدرجة

hiragate.com

الأولى- في بناء المفاهيم وصوغها صياغة مستقلة مبتكرة وملهمة، أو مراجعة المفاهيم السائرة في مجالنا التداولي، لتهذيبها وتنقيحها وعرضها من جديد على أصولها من جهة، وعلى المآلات والنتائج بحسب ميزان المصالح والمفاسد من جهة أخرى.

ويبدو من مقتضيات هذه العملية ولوازمها، التأسيس لمفاهيم جديدة ينطلق منها الفكر الدعوي المعاصر في تعامله مع مختلف القضايا الفكرية والظواهر المجتمعية والسلوكية. ولعل حاجة هذا الفكر إلى استشفاف وضبط المفاهيم الكلية التي تتّسق مع "رؤية العالَم" في كل مرحلة من مراحل الاجتماع الإنساني وتجاربه، لا تقل أهمية عن العلم بالأحكام الجزئية ومعرفة تفاصيل الحوادث المستجدة؛ إذ إن إغفال المسلّمات الثقافية، والرؤية الكلية التي توجه السلوك الإنساني عمومًا وتنتظم مختلف قضايا الواقع وظواهره وجزئياته، يؤدّي إلى وضع الأفكار والقيم والأحكام في غير موضعها، كما أن الغفلة عن تقييدها بالسياق، ومراعاة قرائن الأحوال وموازين الزمان والمكان، قد يفوت المصالح المتوخاة منها.

إن الفلاسفة يقرّرون في أدبياتهم، بأن كل مشكلة تحتاج إلى مفهوم، وبدون تأسيس المفهوم وصياغته لا يمكن بحال حلها ومعالجتها. فالفيلسوف الفرنسي "جيل دولوز"، حاول تجديد الفلسفة بربطها بما سماه "خلق المفاهيم"، داعيًا إلى إعادة النظر في تعريف الفلسفة، حيث خلص إلى أنها "فن تكوين وإبداع وصنع المفاهيم". وبناء عليه نقول إن الفقيه الداعية المجتهد هو الذي يبدع مفاهيمه، ويراعي فيها روح الوقت، ويبلغ بها درجة الاستقلال صياغة وصقلاً وتطويرًا.

د- أن تقدّر الدعوة حاجتها الضرورية المؤكدة أيضًا إلى الانخراط في شبكة الاتصال المعاصر. إن توظيف وتسخير المؤسسات والوسائل والوسائط التي يتيحها ميدان الاتصال بفروعه المختلفة، والقدرة على صناعة المنتج الدعوي في ميدان الفنون والآداب والتلفزيون والإعلان والخبر والفضائيات والإنترنت، والقدرة على ربط العلاقات مع المؤسسات والجمعيات الإبداعية والسياسية والثقافية والاقتصادية؛ لهو من صميم فروض الدعوة وتكاليفها، وجليل مهماتها ومشاغلها، وهو الذي سيجعلها في موقع التكافؤ والمزاحمة والنِّدِّيَّة مع الإستراتيجيات التواصلية المتجدّدة.

هـ- أن تقدّر الدعوة حاجتها الملحّة والمؤكدة، إلى الإلمام بمفردات ثقافة العصر الضرورية العملية المشتركة، التي تتوفر الدواعي على معرفتها وتحكيمها وتداولها، ويحتاج إليها الأفراد والجماعات لتدبير شؤونهم في الحياة، ويقوم عليها نظام معاشهم وقيمهم واجتماعهم. فإنه آن الأوان أن تتخفف مؤسسة الدعوة من ضغط وتأثير الثقافة المثالية العامة التي ينشئها الشحن العقدي، والولاء التاريخي للمبادئ والذي يحمل بعض الناس بسوء تقدير على الانكماش، والانفصال عن الواقع، والخوف من الجديد، والمبالغة في الاحتياط، وتغييب قوانين التاريخ، والانكفاء على الذات، مع أن من أعظم سنن الله ﷻ في عوالم الكون والنفس والاجتماع قواعد الحركة والتجدّد والتغير والتطور.. وهذه كلها قوانين كونية واجتماعية مركوزة في طبيعة الخلق، وهي من أخص صفات الحوادث والمخلوقات والعوالم التي خلقها الباري ﷻ. ومن أجل ذلك شُرع الاجتهاد للنوازل المشكلة والقضايا الملتبسة والوقائع المستجدة.. فما أحوج مؤسسات الدّعوة -وهي أوعية وصيغ مرتبطة بأهداف موضوعية في زمان معين ومكان معين- إلى تنمية تفكيرها الاجتهادي، وتجديد أدواتها في تحليل الظواهر والمواقف والأحداث وتقويمها، بناء على ملاحظة الأنساق الكلّية والعوامل المؤثرة كالمصالح؛ ومنها الثروة والسلطة والقوى الدولية والتحالفات والانتماء العرقي والشخصية والدين واللغة والمذهب والتاريخ والجغرافيا وغيرها، واستثمار ذلك في إثراء مهاراتها وخبراتها، بما يمكّنها من حسن قراءة الواقع وتحليله وفهمه واستيعاب قوانينه الاجتماعية والتاريخية، وحسن تنزيل المبادئ والقيم والأحكام عليه، واكتساب اللغة الإنسانية التواصلية المشتركة التي تحظى بالاحترام والقبول. ■

(*) عضو المجلس الأكاديمي للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

hiragate.com

د. فؤاد البنا*

القوانين العشرة للتميز النحلاوي

دعانا القرآن الكريم في أكثر من ألف آية، إلى تفعيل ملكاتنا العقلية في آيات الأنفس والآفاق. ومنها حشرة "النحل"؛ فهي حاوية لكثير من العبر، وجامعة للعديد من الدروس، ولهذا خصها الله بالذكر في واحدة من السور الكبيرة، وسماها باسمها: "النحل"، حيث أودع ﷻ سره في أضعف خلقه، سواء في الجوانب المادية التي تستلزم الاستثمار، أو في الجوانب المعنوية التي تستوجب الاستهداء.

وفي هذه المقالة المقتضبة، سنعرّج على جوانب الاستهداء، وسنركز على استنباط عشرة قوانين للتميز الحضاري، مسطرين إياها بالعسل، ومرتشفين حلاوتها من الشهد النحلاوي، وذلك على النحو الآتي:

١- قانون التنوع المنساب

للنحل مملكة مترعة بالعجائب والدقائق، جعلتها مثالاً لانسجام الدأب وانتظام العمل، ونموذجًا لانسياب النشاط وسلاسة الحراك، حيث يحترم الجميع المهام ويقفون عند التخصصات، وينهمك الكل في العمل بلا تضارب ولا تناقض، ومن دون تداخل أو عشوائية.

حتى لكأن النحل نجوم أو كواكب تسبح في أفلاك الانسياب، أو كأنها تروس في مصنع الانضباط.

ولأن القيم لا تتجزأ، فإن انسجام النحل مع بعضها؛ صير أجوافها معامل لانسجام سائر أنواع الرحيق المجلوب من شتى الأزهار، والمأخوذ من سائر الثمار.

ومـع أن كل الحضـارات تتأثـر وتؤثـر تأخـذ وتعطـي، إلا أن الحضـارات المتألقة تعطي أكثر مما تأخـذ. ولو أخذت فإنهـا تأخذ مادة أولية تحولها بعلمها ودأبها إلى عناصر راقية توفر الرفاه للإنسان.

وهـو درس بليـغ للبشـر، يستحثهم على مـزج أفكارهم كالعسل، وانسجام حركتهم كالنحل.

فهل يستفيد المسلمون من انسجام النحل ودروس سورة "النحل"؟ وهل سيغادرون "معارك التآكل العنكبوتي" إلى "معتركات التكامل النحلي"؟

وكيف ينبغي حدوث ذلك؟ وما هي القواعد والضوابط اللازمة لتحقيق هذه الغاية والضابطة لإيقاعات العمل، حتى لا يتردى مرة أخرى في مهاوي الفوضى، وينزلق إلى متاهات التنازع المدمر للطاقات والمهدر للأوقات؟

٢- قانون التناسب الطردي بين الإمكانات والمكانة

لقد تحقق الانسياب في مملكة النحل بالتناسب، حيث يصل التناسب بين الأسباب والنتائج، أو بين السعي والحصاد، وكذا بين الإمكانات والممكنات، إلى سدرة المنتهى. فالسعي الحميم لجلب الرحيق هو سعي جماعي، لا يقلل من حركة النحلة بل يذكيها، إذ أن النحلة الواحدة تطير في اليوم ستين مرة ذهابًا وإيابًا!

هذا الجهد الجمعي المميز، أنتج ثمارًا مميزة هي خلاصة سائر الثمار، وهو العسل بخصائصه العجيبة كغذاء، وقدراته الخارقة كدواء لجهاز المناعة في جسم الإنسان. فمتى سنحقق التناسب بين ما نريد وما نعمل؟ وكيف سنستثمر ملكاتنا وإمكاناتنا لتحقيق المكانة اللائقة بنا؟

٣- قانون الاقتباس المعملي

إن جلب النحل للرحيق من سائر الأزهار والثمار، هو درس بالغ الأهمية في ضرورة اقتباس الخبرات النافعة، للاستفادة من نقاط القوة والتفوق عند الآخرين، فالخبرة هي الرحيق النافع والترياق الناجع.

غير أن الدرس الأهم في هذا المجال، هو أن النحل صار معملاً لمزج وتكييف هذه العناصر وفق قوانين ألهمها الله إياها، للخروج بمادة جديدة ذات خصائص فريدة، ولا توجد في سائر العناصر الأولية؛ بمعنى أن الاقتباس الواجب، يقتضي جمع المميزات الحاضرة في العناصر المقتبسة مضاف إليها ميزة الصهر والتفاعل وفق منهجية علمية مقاصدية.

إن عملية صنع الرحيق الجديد، تتم في جوف النحلة، حيث منحها الله غددًا تفرز بعض الأنزيمات في العسل، وتمزجه بطريقة دقيقة، فتتكون داخله عشرات العناصر والفيتامينات البالغة الأهمية لجسم الإنسان: غذاء، ووقاية، ودواء!

ترى متى تترجم أمتنا إلهام النحلة إلى اجتهادات جماعية تتم في معامل ومراكز أبحاث لقضايا الاقتباس والتأصيل والتكييف، وفق قواعد وقوانين صارمة تمنع تحول الاقتباس الحضاري إلى غزو ثقافي؟

٤- قانون التغيير الإستراتيجي

من يحلم بالتغيير الشامل ويريده لا يكتفي برسم الهدف الغائي، بل ينبغي أن يحدد وسائل وأساليب التغيير الإستراتيجي، وفق الإمكانات المتاحة التي ينبغي صهرها في بوتقة الإبداع، وتوظيفها بطريقة ذكية، حتى تؤتي ثمارها المرجوة، كالعسل الذي ينساب بسرعة إلى جهاز المناعة، وتصل آثاره القوية إلى كل خلية في الجسم؛ فيمدها بالحيوية، ويمنحها التجدد والتألق، ويهبها القوة التي تحيلها إلى صخرة تتحطم عليها موجات الفيروسات والجراثيم والبكتيريا الضارة، ومن هنا جاء حديث القرآن الكريم عن العسل بأن ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾(النحل:٦٩).

٥- قانون تحصين الداخل

أثبتت الدراسات العلمية والتجارب المعملية، أن العسل أهم عنصر في الأرض لتقوية مناعة جسم الإنسان، وأن من يتناولونه بمقادير منضبطة وبشكل مستمر، يستعصون على الأسقام والأمراض.

وبالنسبة للمجتمعات الإنسانية، وبعد استقراء تجارب الصراع البشري، اتضح أن أي مجتمع لا يمكن

غزوه ما لم يكن جهازه المناعي ضعيفًا، وأن أي أمة لا يمكن أن تهزم ما لم تحمل في داخلها القابلية للهزيمة.

فكيف بالأمة الإسلامية التي تزيد على هذه السنة النافذة، بأن الله تعهد بأن لا يمكِّن عدوًّا من خارجها يستأصل شأفتها، وذلك لكونها أمة الرسالة الخاتمة للناس جميعًا.

وهذا يؤكد بأن ما تتعرض له الأمة من تخلف ماحق وعداوات لازبة، كلها ذات خلفية محلية وجذور داخلية. وأن الخروج من هذه الدوامة، لا يمكن أن ينجح ما لم تتقو منظومة المناعة الاجتماعية، ابتداء بتمتين حصون الوعي، وتقوية صروح العدل.

٦- قانون العطاء "الإنسان العسلي"

من المعلوم أن الإنسان كائن اجتماعي، ويمتلك القدرة على التأثير والتأثر، غير أن الإنسان الأصيل صاحب شخصية قوية، ويعطي أكثر مما يأخذ، ويؤثر أقوى مما يتأثر. وهو يشبه العسل الذي يبلسم جروح الناس ويداوي عللهم، فيحدث آثارًا عظمى على الصحة عبر تقوية الجهاز المناعي، غير أنه يستعصي على التغير، لدرجة أن العلماء اندهشوا عندما وجدوا عسلاً في مقابر فراعنة مصر لم يصبه بعد آلاف السنين إلا تغير بسيط في اللون، حيث مال إلى السواد.

ومع أن كل الحضارات تتأثر وتؤثر تأخذ وتعطي، إلا أن الحضارات المتألقة تعطي أكثر مما تأخذ.

ولو أخذت فإنها تأخذ مادة أولية تحولها بعلمها ودأبها إلى عناصر راقية توفر الرفاه للإنسان، كما تفعل الدول الغربية مع النفط الخام العربي، والذي تحيله إلى مئات الصناعات البتروكيماوية، بجانب فوائده المعروفة كطاقة أساسية لتسيير الحياة كافة.

٧- قانون القيادة للنوال لا للنوع

ما تزال بعض المجتمعات البشرية تشهد صراعًا محمومًا بين مكوني الجنس البشري -الذكور والإناث- حيث تميل المجتمعات المتخلفة إلى تسييد الذكر لكونه ذكرًا كأنه يمتلك جينات التفوق، وتحمل الأنثى جينات التخلف. في مملكة النحل تقوم الإناث بمعظم المهام والوظائف، ومن هنا فإن قيادة مملكة النحل دائمًا ما

ولأن القيم لا تتجزأ، فإن انسجام النحل مع بعضها؛ صير أجوافها معامل لانسجام سائر أنواع الرحيق المجلوب من شتى الأزهار، والمأخوذ من سائر الثمار.وهو درس بليغ للبشر، يستحثهم على مزج أفكارهم كالعسل، وانسجام حركتهم كالنحل.

تكون بيد الأنثى، أي أن التشريف مرتبط بالتكليف وليس بالجنس أو النوع، وبمعنى آخر فإن القيادة تميز عطائي لا امتياز نوعي.

٨- قانون تعويض الحجم بالفاعلية

النحلة كائن حشري صغير، غير أن وظيفتها سمت بها بين سائر الحشرات، وفاعليتها رفعت شأنها بين كثير من الكيانات التي تكبرها في الحجم، وربما في الإمكانات غير المستثمرة.

وهذا ما يحدث للكائنات وللكيانات في عالم بني الإنسان، فهناك دول صغيرة الحجم بمساحتها وسكانها، وقليلة الموارد والثروات، غير أن فاعلية إنسانها بوّأتها أشرف المنازل، ورفعتها أعلى المراتب.

ولو ضربنا المثل باليابان مقابل العالم الإسلامي الذي يضم حوالي خمسين دولة، لوجدنا العجب العجاب وما يبعث على الاستغراب.

فمساحة اليابان قرابة ثلث مليون كم^2، وسكانها يبلغون ١٢٩ مليون نسمة، في مقابل مساحة تصل إلى نحو ٣٥ مليون كم^2 ومليار ونصف المليار من المسلمين.

أما عن الثروات الطبيعية فالفرق هائل جدًّا، فليس لليابان ثروة طبيعية تعادل دولة إسلامية واحدة كإيران والتي تتجاوز اليابان بضع مرات بثرواتها الطبيعية.

غير أن صادرات اليابان تساوي عشرات الأضعاف مَثيلتها في إيران، بل تساوي صادرات العالم الإسلامي كله -ويا للفاجعة- ثلاث مرات. فلماذا هذا البون الشاسع بين المدخلات الكثيفة والمخرجات الخفيفة؟

إنه قانون الفاعلية الذي مكّن اليابان من تعويض الكم

hiragate.com

بالكيف عندما استثمرته، حيث رفعت من مدخلات صناعة الإنسان المتميز في فكره وفعله حتى بلغ ذروة التفوق والتألق، وصار ثروتها العظمى التي جلبت لها كل تلك الأموال، وصنعت لها ذلك الغنى الفاحش. وهذا كله جعلها أقوى حضورًا في مضمار صناعة الحضارة، وأشد فاعلية وثقلاً في ميدان التوازنات الدولية.

٩- قانون الوسط العسلي أو تنظيف البيئة

ثبت أن العسل سمّ قاتل للبكتيريا، ولهذا فإن بيئة النحل شديدة النظافة والنقاء من البكتيريا والجراثيم الضارة. وبفضل هذه الخصيصة يعيش العسل فترات طويلة جدًّا دون حاجته إلى أي مواد حافظة.

إن مجتمعاتنا أحوج ما تكون للاستفادة من هذا الدرس البليغ.. فحتى لا تفسد رسالتنا، يجب أن تكون بيئتنا صحية الفكر، نقية الدوافع، خالية من بكتيريا الفساد، وقاتلة لديدان المحسوبية وجعلان العصبيات.

وهنا لا بد من تعسيل بيئتنا الاجتماعية عبر أساليب التعقيم والتنقية كافة، مثل بث النصيحة الصادقة، إشاعة النقد البناء، صناعة الفهم الراقي، بناء الوعي الجمعي، احترام القانون العادل، تفعيل الثواب والعقاب، تنشيط التعزيز والتعزير.

١٠- قانون الطيران الرسالي

يعلمنا "النحل" أن الكائن الرسالي الفاعل، ليس زاحفًا بل "طائرًا". وكل صاحب رسالة لا بد أن يمتلك القدرة على الطيران، فيطير بجناحي الروح والمادة نحو آفاق الوسطية واليسر، وبجناحي الموهبة والمعرفة نحو معالي التميز والإبداع.

ولكي يصل مسلم الشهود الحضاري إلى أكبر عدد ممكن من الناس، ولكي يحلق في سماء القدوة -وهي أكبر وسيلة لتبليغ الرسالة- لا بد أن يمتلك أجنحة الطيران. أما إن ظل زاحفًا فوق تراب الجهل وطينة الظلم اللذين انسل منهما، فلن يلتفت إليه الناس، ولن يستمع إليه الخلق، وربما تعرض للدهس كالذر من قبل أقويائهم، سواء بقصد أو بدون قصد. ■

(*) أستاذ الفكر الإسلامي السياسي، جامعة تعز / اليمن.

زهرة بين الزهور

يا زهرة القلب،
يا فراشة الروح!
حولكِ الزهر مشتاق،
والفراش هَزَّاج وصفَّاق،
وقلبك الصغير بالجمال خَفَّاق،
وبالنور دَفَّاق..
فَقَرِّي عينًا، واطمئنّي نفسًا،
وأنتِ تتجولين، والجمالَ تَسْتَجْلين.

* * *

عبد الله محمد سعيد*

> إياك أن تمُنَّ على أحد بما أسديتَ له من معروف، وأدّيتَ من واجب، وصنعتَ من صنيع.. فإنْ فعلتَ ذلك سقطتَ في عيون الناس واستهجنوك، وفقدتَ احترامك، وهانَ مقامك.. فلا مِنّة على واجب تؤديه، وصنيع لا بد أنْ تزجيه.
>
> الموازين

جنون الموت

١

اسْـمعوا قصّتي، واشـهدوا حزنـي ولوعتي، وانسـكاب عَبْرَتـي.. أنـا الآتي من وراء جبـال الغضـب، القَذَّافـات بالشـرر، ومـن بين براكين اللهـب، المتفجّرات بالموت والعطب.. قدِمتُ إليكم من عالَم مجنون ممسـوس، كُلُّ ما فيه صارع أو مصـروع، قاتـل أو مقتـول، ذاهـل أو مشـدوه، لاعـق دم أو شـارب دمـع؛ فـلا تـدري أيّهـم القاتـل وأيهـم المقتـول، وأيهـم النائـح، وأيهـم المنـوح.. والمـوت بينهـم يغدو ويـروح، له من

أنت يا موت، أوَما علمتَ أن ضِدَّ الشيء كمين في الشيء نفسه، وأن نقائض الأشياء ملازمة لأشيائها، وكما تولد النار من ماء الشجر الأخضر، ويولد النهار من أحشاء الظلام؛ ستولد الحياة المبجَّلة من بين أحشائك على الرغم منك.

جنون الناس نصيب، فاقدًا للصواب، ناسيًا للرشد والوقار، يجوس خلال الديار، يقطّع الأنفاس، ويحصد الآجال بغير حساب؛ المعجَّل منها والمؤجَّل، المقدَّم منها والمؤخَّر، صبايا وصبيانًا، رُضَّعًا ومرضعات، شبانًا وشابات، رجالاً ونساء، عُجَّزًا وشيوخًا، أخضر الإنسان ويابسه، صالحه وطالحه، جديده وتليده، وكأن ريحًا هوجاء مرّت على الديار فتركتها قاعًا صفصفًا، وقفرًا بلقعًا، يحوم في أجوائها البوم والغربان، فلا تسمع فيها إلا صارخًا أو باكيًا، فاجعًا أو مفجوعًا، ناعيًا أو منعيًا.

فيا أيها الموت، يا رافع أعلامك، وناشر راياتك، على الهامات المجندلات، والرقاب المحزوزات، والرؤوس المحصودات، والأشلاء المبعثرات، والدماء المسفوحات! حسبك ما أكلت من أجساد، وما شربت من دماء، وخرّبت من ديار، وأشعلت من حرائق، ونشرت من دمار، وسلبت من أرواح.

يا موت... اعلمْ أن للغيب فيك صوتًا لم تسمعه بعد، وأن للقدر فيك أمرًا لم تدركه بعد، فأنت بين إصبعين من أصابعه، إن شاء أرسلك، وإن شاء حبَسك، فأنت في قبضة مشيئته، ومقهور إرادته، وإني لأحسبه على وشك أن يأخذ بلجامك، ويمسك بخناقك، ويكبح جنونك، ويعيد إليك رشدك وصوابك ووقارك، فقد طفح كيلك، وطغا جنونك، وفشا في الناس أمرك، وأطاح بعقولهم رعبك، حتى صرت من كثرة ما ألفتَهم وألفوك ظلّهم الذي يتبعهم حيث ساروا وسارت بهم الأيام، فأنت تساكنهم في غرف نومهم، وتجالسهم على موائد طعامهم، وتدخل عليهم من كل باب، وتأتيهم من كل شبَّاك، وتطلع عليهم من بطون الأرض، وتتهاطل عليهم من أجواء السماء، وكأنك واحد منهم؛ لا يستغربون مقدمك، ولا يستعجبون من نزولك بهم، فأنت اليوم لازمة من لوازم وجودهم، بينما غدت الحياة هي الاستثناء من ذلك، وأعجوبة الأعاجيب في عالمٍ كُلُّ ما فيه ميّت أو على وشك أن يموت، فالكُلُّ حصير مصيدة الموت، في انتظار دوره ليلتحق بقوافل الموتى وهي تترى آناء الليل وأطراف النهار.

أتظن -أيها الموت- أنك قد أحرزت الانتصار، وكسبت الحرب، وبسطت على الحياة سلطانك، وأقمت فوق أنقاضها تيجانك، وأنها قد استسلمتْ لك، ووضعتْ مقاليدها بين يديك وتحت أمرك؟! كلاَّ... فذلك وهْمك الذي سيرديك، وخطؤك الذي سيشقيك، فأنت -يا موت- شئتَ أم أبيت تحمل في طواياك جذر الحياة، وبذرة تفتّحها، وبُرْعُم زهرتها... أوَما علمتَ أن ضِدَّ الشيء كمين في الشيء نفسه، وأن نقائض الأشياء ملازمة لأشيائها، وكما تولد النار من ماء الشجر الأخضر، ويولد النهار من أحشاء الظلام، هكذا ستولد الحياة المبجَّلة من بين أحشائك -يا موت- على الرغم منك.

وعند ذاك سيتبدّل الزمن غير الزمن، والأرض غير الأرض، والإنسان غير الإنسان، وستشدو الحياة، ويغنّي الوجود، وتبتهج الكائنات، وتهلُّ الأعياد، وتَفْتَرُّ الشفاه عن ابتسامات الأمَل، وتشرق الأسارير بفرحة القيام من العدم، وينادي منادي الغيب: هلِّلُوا للحياة يا أبناء الحياة، ولربّ الحياة سبِّحوا، وله اسجدوا، ومنه اقتربوا.. فقد انقشع الظلام، وتهاوت الأحلام، وساخت الأقدام في هاويات النسيان، وعاد الإنسان إنسانًا، عظيمًا في آدميته، كبيرًا في عقلانيته،ساميًا في سلوكيته، ينبوعًا في رحمته، طعّامًا للجائعين، سقّاء للظامئين، موئلاً للتائهين، وحضنًا آمنًا للفزعين. ■

(*) كاتب وأديب سوري.

hiragate.com

د. محمد بن إبراهيم السعيدي*

التأصيل الشرعي
في حماية الفكر

حين نريد الحديث عن التأصيل الشرعي لحماية الفكر، يجدر أن نَتقدَّم بالحديث عن ماهية الفكر الذي تطمح الشريعة إلى حمايته؛ ويمكن القول بأنه نشاط الذهن الإنساني، والذي عبرت النصوص القرآنية عن أصحابه بأنهم أولو الألباب، وأولو النهى، وقوم يتفكرون، والمتوسمون، وقوم يعقلون.. في آيات كثيرة جدًّا من القرآن الكريم. وليس المقصود بهؤلاء، صنف واحد من البشر متفوق على غيره في الذكاء دون الآخرين،

حين نريد الحديث عن التأصيل الشرعي لحماية الفكر، يجدر أن نَتقدَّم بالحديث عن ماهية الفكر الذي تطمح الشريعة إلى حمايته؛ ويمكن القول بأنه نشاط الذهن الإنساني، والذي عبرت النصوص القرآنية عن أصحابه بأنهم أولو الألباب، وأولو النهى.

لأن خطاب الشريعة الإسلامية بمجمل التشريع عام، وأما في تفاصيله فيدخل فيه الخطاب الخاص والعام، ومن يتتبع الآيات التي ذُكِر فيها أصحاب العقول، وجاء الأمر فيها بالتفكر، يجد أن معظم الأحكام التي جاء الأمر بالتفكر في سياقها، مما هو موجه للبشر عامة؛ كالأمر بالتقوى، والتكليف بالتوحيد، والتحذير من الشرك، والتوجيه بتدبر الآيات الكونية.

فكما أن النصوص القرآنية أشادت بأرباب العقول، فقد حرصت على حماية هذا النشاط الذهني من الزلل.

ويمكن أن نصنف النصوص الشرعية التي حماها الشرع من تدخلات العقل كما يلي:

١- النصوص التي لا تقبل التأويل وهي المحكمات، فلا يجوز للعقل العمل على تأويلها وصرفها عن معناها المحكم إلى سواه.

٢- النصوص التي تقبل التأويل، لكن يراد تأويلها بغير الطريق الصحيحة للتأويل.

فقد جاءت الشريعة حامية لهذين الصنفين من النصوص من تدخلات العقل، وجعلت النشاط الذهني المَعْنيّ بها منحصرًا في:

أ- تأويل النصوص القابلة للتأويل، لكن منعت أن يتم هذا التأويل بغير قواعد التأويل الصحيحة، والتي يمكن تلخيصها في رد المتشابهات إلى المحكمات، والتي أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(آل عمران:٧). فطريقة الراسخين في العلم في تأويل النصوص، تعتمد على رد المتشابهات إلى المحكمات، منطلقة من الإيمان بأن القرآن كل من عند ربنا، وهذا الإيمان بالكلية يمنع من ضرب النصوص بعضها ببعض عن طريق معرفة الناسخ والمقيّد والمخصّص والمُبَيّن، ومعرفةُ ماذا يتبقى من أحكام النص المنسوخ بعد ورود الناسخ، وكذلك ما يبقى من أحكام المطلق والعام، وماذا يُستفاد من المُجمَل بعد بيانه.

ب- استنباط الأحكام الظاهرة وإعطاؤها درجتها حسب تقييمهم لدلالات الألفاظ، وغير الظاهرة وفق تقييمهم للنصوص المأوّلَة ودواعي التأويل، أي دواعي صرف اللفظ عن ظاهرة، أو الاستنباط من دلالة السياق أو اللحاق أو السباق.

وهذا جزء مما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(النساء:٨٣)؛ والشاهد من هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، وهم في كل فن الذين لديهم ملكة استخراج أحكامه.

والخلاف السائغ في الشريعة لا يكون غالبًا إلا عبر هذين المسلكين، وهما الخلاف في تأويل ما يقبل التأويل، والخلاف في الاستنباط من دلالة النصوص الظاهرة أو الخفية أو من دلالة السياق. ويدخل في هذين المسلكين، الاختلاف في الأقيسة، والاختلاف في تقدير المصالح وتقدير المفاسد، والاختلاف في عدد من الأدلة التي سماها الأصوليون "أدلة إجمالية"؛ كالاستحسان والاستصحاب والمصلحة المرسلة وقول الصحابي والاستقراء والأخذ بأقل ما قيل.

كما أن كثرة الآيات التي تنص على عربية القرآن وإبانته، مؤكدة على أن فهم النصوص لا بد أن يكون وفق أفهام العرب الذين نزل القرآن بلسانهم. فاللغة ليست مجموعة ألفاظ لها دلالتها المفردة وحسب، بل هي طريقة فهم أيضًا. فما كان حقيقة عند العرب، لا

hiragate.com

يمكن أن يفهم على أنه ورد في القرآن مجازًا، والعكس صحيح، وما كان منقولاً عن دلالته الأصلية عند العرب، لا يمكن فهمه وفق الدلالة الأصلية، وما كان في فهم العرب عامًا، لا يمكن أن يكون في النص خاصًّا والعكس، وما كان في أفهام العرب مطلقًا، لا يمكن أن يفهم مقيَّدًا، والعكس صحيح.

ولذلك قام العلماء بضبط هذه الأمور في عدد من العلوم الإسلامية على رأسها علم أصول الفقه وعلم فقه اللغة وعلم البلاغة؛ فقسَّم الأصوليون الألفاظ والسياقات -بالنسبة إلى معانيها- إلى نص وظاهر وخفي ومجمل ومبين ومشترك ومنقول، وقسموها -بالنسبة لما تتضمن من الأفراد- إلى مطلق ومقيد وعام وخاص، وقسم البلاغيون الألفاظ -بالنسبة لمعانيها- إلى صريح وكناية وحقيقة ومجاز، وانصرف علماء فقه اللغة إلى تعداد الألفاظ وحقائقها ومجازاتها ومرادفاتها ومراتب دلالاتها.

فإذا خرج العقل في تعامله مع النصوص عن تلك الدائرة التي تقدم إيجازها، فكل نشاطاته تكون داخلة في اتباع الشبهات.

وهنا، لا بد أن أقف عند نقطة هامة؛ وهي أن دين الإسلام -فيما دلت عليه النصوص القاطعة أو الظاهرة أو المبينة- يؤكد على أنه هو الحق الذي لا يجوز خلافه، وذلك في عدد من النصوص، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(النساء:١٧٠)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(آل عمران:٨٥).

وانحصار الحق في الإسلام ليس مقتصرًا على الجانب العقدي، بل يشمل الجانب الفقهي أيضًا، فالأحكام الفقهية هي حدود الله التي يَحرُم تعدّيها أو الاعتداء عليها:﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(البقرة:٢٢٩)، وهذا الأصل هو المنطلق لفهم الأحكام الشرعية الصارمة التي يتطلع الشرع من خلالها لحماية الأمة من أصحاب الأهواء الفكرية، والتي تفهمها الثقافات الأخرى على أنها حجر على حرية الفكر.

فمن لا يفرق بين القطعي من الأدلة من الظني والوهمي، لن يستطيع تقدير الأدلة حق قدرها، كما أنه لن يستطيع وضع الأدلة في موضعها، فقد يستدل بالظني على أمر لا يُغني فيه غير القطع، والعكس أيضًا صحيح.

حراء

أعود للحديث عن الشبهات وهي قد تطلق -أي الشبهات- على ما لم يتضح حكمه لغير المجتهدين أَحَلال هو أم حرام، أو ما لم يترجح فيه عند المجتهد أحد الرأيين. وحديثي هنا ليس عن هذا الجانب.

بل أتحدث هنا عن مصطلح الشبهة الذي يعني نوعًا من الحُجَج، يتوهم غير الفاحص المؤهل أنها دليل وليست دليلاً، أو يتوهم أنها ناقض لدليل سابق وليست كذلك. ويمكن أيضًا القول، هي مجموع ما يتوصل العقل به إلى ما يخالف محكم النصوص أو ظاهرها، أو يخالف المؤول منها عبر استخدام منهج خاطئ في التأويل.

ولا بد من التأكيد هنا على أنه لا يستطيع التمييز بين الشبهة والدليل الصحيح، إلا من اتصف بصفتين:

الصفة الأولى، العلم بالمسألة التي يدور الاحتجاج حولها؛ فإن كثيرًا ممن تستهدفهم الشبهات وينساقون إليها، لا يعلمون حقيقة المسألة التي تدور حولها الشبهة، وربما لو عرفوا حقيقتها، لم يقبلوا ما يُساق حولها من شبه، وذلك كمن يقعون في بعض المخالفات العقدية ويتعلقون بشبهات، ولا يعلمون أن حقيقة المسألة هي إنكار لوجود الخالق مثلاً.

الصفة الثانية، المعرفة بمناهج الاستدلال ومسالك الأدلة؛ فمن لا يفرق بين القطعي من الأدلة من الظني والوهمي، لن يستطيع تقدير الأدلة حق قدرها، كما أنه لن يستطيع وضع الأدلة في موضعها، فقد يستدل بالظني على أمر لا يُغني فيه غير القطع، والعكس أيضًا صحيح. ■

(*) أستاذ في أصول الفقه، جامعة أم القرى / المملكة العربية السعودية.

محمد جمال حليم*

أزمة المصطلح والدلالة

لم يكد المشهد الثقافي العالمي ينتعش، حتى تطل برأسها من جديد أزمات تتجدد بتجدد العصور، التي تكتسب منها أنماطًا وأشكالًا مغايرة تجعلها أكثر تعقيدًا وتراكبًا.

فمع بزوغ فجر الثقافة -لا سيما في الوسط الإسلامي- وانتشارها لتطور وسائل نقلها، أخذت أزمات العصر الثقافية حظها من هذا التطور وتلك الحالة. ففي عصر العولمة وعصر السماوات المفتوحة، ما يغري لاكتساب المعارف وتبادل الثقافات، وهو تربة خصبة للنقاش والتحاور الذي أضحى فريضة وقتية، وضرورة حتمية على جميع المستويات، ليس بين الأفراد فحسب، بل بين الدول وبعضها.

وهنا تبرز أزمة قديمة حديثة، وهي أزمة تحرير المصطلح وتوضيح الدلالة منه، فبدون ذلك تظهر هوة سحيقة في الأوساط العلمية والثقافية -لا سيما في المجتمعات الإسلامية موضوع حديثي- عند طرح قضية للنقاش، أو لمعرفة حكم ما في نازلة، أو واقعة مستجدة؛ إذ كيف يحدث النقاش دونما تحديد لمقصودٍ معروف دلالته يتفرع عنه النقاش للوصول إلى جواب؟ من هنا دعت الحاجة لتحرير المصطلحات قبل الخوض في أي جدل أو محاورة.

من أسباب الأزمة

ومن أسباب الأزمة أن فهم المصطلح وانتشار مدلولاته، هو نتاج طبيعي لتغير الظروف واتساع مدارك العقل البشري، بالإضافة للاعتماد على التجربة البشرية المتغيرة، وهنا تظهر المعضلة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاختلاف في أحد

جوانبه، مفتعل لمصالح أيديولوجية ضيقة حزبية كانت أو شخصية، كما لا يخفى ما للمنظمات العالمية -ذات المرجعية غير الإسلامية- من دورٍ في استغلال هذا لترويج سلعتهم الرديئة بتفتيت المجتمع المسلم وتقويض الأسرة باسم حقوق المرأة والطفل لمطاطية مصطلح حقوق هذه الفئات وغيرها.

من صور الأزمة

وقد اتخذت الأزمة أشكالاً وصورًا متعددة، وانصبت جهود العلماء والمفكرين على معالجتها بتعدد صورها؛ فمنهم من نظر لها من جهة تحرير المصطلحات العلمية لا سيما في مجالي الطب والهندسة، وهؤلاء نادوا بضرورة "تعريب العلوم". وقد بذلت مجهودات ضخمة لاستيعاب الأزمة وتحرير مصطلحات العلوم، إلا أنها تبدو هزيلة إذا ما قورنت بحجم الأزمة نفسها، يقول أحمد الأخضر غزال[١]: "إن كل المحاولات الكثيرة والحثيثة نحو تعريب المصطلح العلمي وتوحيده فردية كانت أو جماعية، مؤسسية أو مجمعية، لم تحقق أهدافها من قريب أو من بعيد، بل زادت الطين بلة في إيجاد مترادفات متعددة ومتنوعة للمفهوم الواحد، غدا إزاءها الدارس في حيرة في التعامل مع هذا المصطلح أو ذاك، فكانت النتيجة المنتظرة من ذلك كله هزيلة إذا قورنت بضخامة المشكلة، وبالمجهودات الصادقة التي تبذل"[٢].

ولعل هذا يرجع إلى أن الجهود المبذولة تنبع ممن دون الدولة حتى وإن أخذ شكل جماعات وهيئات. لكنّ القضية أعمق من هذه وتحتاج لحلها إلى قرار سيادي، وهو ما يعني طراوة الحلول أمام صلابة المشكلة، وهنا يتأخر الحل، يقول الدكتور عبد الكريم خليفة: "إن قضية التعريب قضية تتصل -من حيث الأساس- بالإرادة السياسية للدولة، وبقرار سياسي تتخذه الدولة في أعلى مؤسسات السلطة"[٣]، وهذه لا تبعد كثيرًا عن مسألة نَشْر المصطلح وتعْميمه بعد توحيده لا من قريب ولا من بعيد.

فيما نظر آخرون لهذه الأزمة -التي اكتوى بنارها المجتمع واصطلى بلهيبها المثقفون- باعتبار البعد الثقافي، لتباين دلالات المصطلحات التي تمثل قاسمًا مشتركًا للحوار بين أكثر من مجتمع، ومن ثم يزداد التعقيد ويكثر اللغط. ولعل الاختلاف على مفاهيم مصطلحات مثل "الحرية" و"الإرهاب" و"الديمقراطية" و"الحضارة" و"الإصلاح" و"التقدم" و"العلمانية" وغيرها، بات يهدد ثوابت العلاقات بين مجتمعات عدة، والسبب الرئيس في هذا، ليس إلا عدم تحرير دلالة مثل هذه المصطلحات، ما ينذر بتفاقم الأزمة ويقلل مساحة التعاون بين البلدان.

إن مسألة توحيد المصطلح ضرورة تحفز المسلمين للسعي إلى تحقيقها؛ ليدركوا غاية تتصل بهوية هذه الأمة وإشاعة العلم الجديد بينها، ومن ثم يكون لها مكان خاص في هذا العالم الجاد المتطلّع إلى الجديد.

تأثيرها في المجتمع المسلم

هذا، ولا يخفى ما لخطورة عدم ضبط دلالات الألفاظ الدينية والمصطلحات التي تعنى بالتشريع والأحكام على المجتمعات -لا سيما الإسلامية- لما يتفرع عن هذه الأزمة من تفريعات وجماعات، يأخذ كل منها ما يناسبها، ومن ثم ندور في فراغ، ونكون كمن يحرث في الماء. ومكمن الخطورة هنا، في إضفاء قدسية على ما يذهب إليه الجميع باسم الدين. ومن الأمثلة هنا، اختلافهم حول مفاهيم مثل "الجهاد" و"زواج المسيار" و"مفهوم دار الحرب" و"دار السلم" و"مفهوم الشورى" و"الانتخاب" وغير ذلك.. بل وصل الخلاف في تحديد معنى "الدولة الإسلامية" و"الدولة المسلمة" و"الدولة المدنية". ولك أن تتصور ما يتفرع عن هذا الاختلاف من تقسيمات وفرق وأحزاب، حتى بات أمر اجتماع المسلمين -على اختلاف بلدانهم - على فهم مصطلحات بعينها، مثل "الخلافة الإسلامية" ضرورة؛ لتخفيف حدة الاحتقان الناتج عن فردانية الفهم والتأويل والتنزيل لأحكام الله.

وقد بدأت جهود العلماء مبكرة، لوضع حل لهذه المعضلة التي تنبأوا بضراوتها، وبدأت الشعوب العربية تشعر بالحاجة إلى توحيد المصطلحات -لا سيما

hiragate.com

العلمية منها- منذ انفصال الدول العربية عن الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى.

ضرورة الخروج منها

ولما كان من مبادئ ديننا الحنيف مبدأ النقاش والمشورة والمحاورة، ليس بين المسلمين وبعضهم فقط، بل وبينهم وبين أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(العنكبوت: ٤٦)، أضحى حل قضية المصطلحات وتحريرها وتحديد معانيها ودلالاتها الجامعة المانعة، ضرورة في مجتمعنا الإسلامي الذي ينطلق نحو التعددية والانفتاح، حتى لا نقع في اللبس الفكري، وندور في الفراغ دونما فائدة تذكر. يقول "الزركان": "إن مسألة توحيد المصطلح ضرورة تحفزنا للسعي إلى تحقيقها؛ لندرك غاية تتصل بهوية هذه الأمة، وإشاعة العلم الجديد بينها، ومن ثم يكون لها مكان خاص في هذا العالم الجاد المتطلّع إلى الجديد"[٤].

فمع تقنيات العصر الحديث، وتطور الأداء اللغوي، وانتشار الفهوم، وتعدد الأفكار وسط الاتساع الجغرافي، والتمدد الحضاري، والانفتاح على الآخر غير سابق النظير.. كل هذا وغيره، يدعونا نحن المسلمين، لاستكمال وضع النقاط فوق الحروف، والخروج بأمتنا من هذه الأزمة بأقل خسائر، حتى نعود وحدةً متماسكةَ البنيانِ شكلاً ومضمونًا. فقد بات ضروريًّا أن تخطَّ الأمةُ طريقَها بنفسها، وتستعيد مراكز الريادة والصدارة وسط عالم تحرقه نيران الفُرقة، وتمزقه المصالح الخاصة؛ لتأخذ سبيلها لإرشاد العالم من جديد. ■

[*] كاتب وباحث مصري.

الهوامش

[١] عالم لغوي مغربي (١٩١٧-٢٠٠٨م).

[٢] المنهجية العامة للتعريب المواكب، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، لأحمد الأخضر غزال، الرباط، ١٩٧٧، ص:٣٩.

[٣] انظر: اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، للدكتور عبد الكريم خليفة، ص:٢٤٤.

[٤] الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، لمحمد علي الزركان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

الانبعاث الثاني

الزمن يأكل بعضُه بعضًا،
والمكان يطوي بعضُه بعضًا..
والإنسانية على مفترق الطرق،
حائرة ذاهلة؛
تُرَى هل دقَّتْ ساعة العالم،
ونهايته اقتربت،
وقيامته أزِفت؟!
إنْ لم يحدث هذا،
فانبعاثنا الثاني قادم إذن،
وزماننا السعيد آتٍ..
والإنسانية إلى النجاة سائرة.

* * *

قضايا فكرية

د. سلمان العودة*

الخوف على الأمة

تجد عند بعض الناس -وخاصة الغيورين على هذه الأمة- خوفًا شديدًا على الدين ومستقبل الإسلام والمسلمين، خوفًا شديدًا مبالغًا فيه.

نعم، للخوف المعتدل الذي يحملك على العمل، وعلى الإنجاز، وعلى المشاركة، وعلى طلب العلم، وعلى أن تكون عنصرًا فعالاً وبناءً في الأمة، هذا الخوف لا إشكال فيه.

لكن الإشكال، في ذلك الخوف المفرط الذي قد يتحول إلى خوف مَرَضيّ يضرّك ويضر الآخرين. فهذا الخوف يُقعِد عن العمل، لأن من تلبّس به، أصبح يائسًا قانطًا، يرى أنه ليس ثمة مجال للإصلاح، وأن الأمة قد

> الخوف الشديد والقلق المفرط، يحمل الإنسان علــى أن يبالغ في هذه الأشــياء، فيكون عنده نوع من القنوط ومن اليأس، وربما يكون هناك تأثير آخر سلبي أيضًا نتيجة هذا القلق، وهو أن يكون عند الإنسان إحساس مفرط بالمسؤولية عن هذا الدين.

حراء

تُودّع منها، ولم يبق إلا أن ننتظر.

ولذلك فكثير من الناس يحملهم هذا الخوف على عقدة سميتها "عقدة الانتظار"؛ فتجدهم ينتظرون المهدي أن يخرج من الأرض، أو عيسى أن ينزل من السماء.

نحن نؤمن أن عيسى عليه السلام سينزل من السماء. ونحن نؤمن بأن المهدي سوف يخرج في هذه الأمة، لكننا نؤمن -أيضًا- أن الله ﷻ لم يتعبدنا قط بانتظار أحد، وإنما تعبدنا بأن نقوم نحن بالأعمال الصالحة التي كلفنا بها، من الدعوة والإصلاح، والخلق الجميل، وطلب العلم النافع، والقيام بالعمل الصالح، والعبادة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، والسعي في تكامل المسلمين.. فهذا ما تعبدنا الله وأمرنا به. أما أن نبقى في الانتظار، فهذا نتيجة خوف أفرط فولّد قنوطًا وعجزًا.

إن الله ﷻ لم يخبرنا أن مهديًا سوف يخرج في عام كذا، أو أن عيسى عليه السلام ينزل في سنة كذا، وإنما تعبدنا بما ذكرنا، مما هو من قطعيات الدين وضرورياته، ونصوص القرآن والسنة المحكمة في هذا الباب.

فالخوف الشديد والقلق المفرط، يحمل الإنسان على أن يبالغ في هذه الأشياء، فيكون عنده نوع من القنوط ومن اليأس، وربما يكون هناك تأثير آخر سلبي أيضًا نتيجة هذا القلق، وهو أن يكون عند الإنسان إحساس مفرط بالمسؤولية عن هذا الدين.

إن بعض الناس، قد يؤدي به الخوف الزائد إلى القعود والقنوط، وبعضهم يؤدي به الخوف إلى الشعور المضاعف بالمسؤولية عن هذا الدين، حتى يظن أن الدين كله مسؤوليته هو، وأن عليه أن يحفظ هذا الدين، وأن يحميه، وأن يقوم به.

وهذا الشعور يفرز عند الإنسان ما يسميه بالوصاية على الدين وأهله، وعلى الدعوة والدعاة، وهذا يضر به؛ لأنه يجعله يتحرك بطريقة غير طبيعية ويضر بالآخرين، لأنه يكلفهم ويتعامل معهم بطريقة ليست سوية.

وهذا كله، نوع من اضطراب المعايير، يولّد عند الإنسان قدرًا من عدم الانضباط، ويفرز إلحاحًا على بعض المسائل والقضايا.

هناك شيء يسميه المختصون: بـ"الفوبيا"، وترجمتها: الخوف المرضي. هو نوع من الخوف الذي لا يبرره الواقع، لكنها تختلف عما سميته بالقلق العصابي. إن الفوبيا خوف من الواقع، أما القلق فهو خوف من المستقبل. ولذا كان الرسول ﷺ يستعيذ من الهمّ والحَزَن.

فالهمُّ يتعلق بالمستقبل، وهو ما نعبر عنه بالقلق العصابي؛ يخاف عندما يريد أن يتزوج، يخاف عندما يريد أن يتخرج أين يوظف؟ يخاف عندما يريد أن يسافر. أما الفوبيا أو الخوف المرضي، فهو ما يتعلق بالحاضر، وهو ما يعبر عنه بالحزن أو الغم. فيكون الإنسان مغمومًا، ضيق الصدر، يخاف من أشياء حاضرة لا يبرر الواقع الخوف منها.

والغربيون يخافون من الإسلام، وخصوصًا دوائر الإعلام والدراسات والمراكز وغيرها. فيسمي بعض الدارسين خوف الغرب من الإسلام "فوبيا الإسلام"؛ أي الخوف المرضي من الإسلام، لأن الواقع أن الإسلام دين صحيح قوي وصلب، ومقاوم.

لكن واقع الأمة الإسلامية لا يوجب خوف الغرب خوفًا مسعورًا، وإنما هذا الخوف -كما يعتبره بعضهم- نوعًا من الفوبيا، أي المبالغة في الخوف.

وقد تكون هذه المبالغة منهم، مقصودة من أجل صنع عدو للغرب، كما كانت الشيوعية عدوًّا للغرب في فترة من الفترات. كما يمكن أن نقول -في بعض الأحيان- إن خوف المسلمين من الغرب، يصل إلى درجة هذه الفوبيا إلى حد ما.

إن الإسلام دين قوي وراسخ وصلب، وقد تكفل الله ﷻ بحفظ هذا الدين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩).

hiragate.com

ولم يجعل الله ﷻ أمر حفظ الدين إلى أحد من خلقه حتى ذكر الله ﷻ وفاة نبيه ﷺ وقال لأصحابه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(آل عمران:١٤٤). فالدين محفوظ، والأمة باقية إلى قيام الساعة، والشريعة خالدة لا زوال لها حتى يأذن الله تعالى.

وقد أخبر الله عن ذلك فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾(التوبة:٣٣).

وفي الآية الأخرى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(الفتح:٢٨).

وأخبر الرسول ﷺ عن آخر هذه الأمة، وما جاء فيها من الخيرات والبركات، وما يجريه الله ﷻ على يد أبطالها ورجالها وأئمتها وعلمائها، من النصر والعز والتمكين.

وإذا كان لدينا خوف من الغرب؛ فإن هذا الخوف ينبغي أن يكون معتدلاً، لا يضعف بحيث نكون لقمة سائغة، ولا يزيد بحيث نصبح ضحايا هذا التخوف ونتيجة لذلك نملك التمييز بين النافع والضار، ولا نقع أسرى الرفض المطلق لكل شيء على اعتبار الشعور بالعجز الذاتي والاستهداف.

من صور الخوف المرضي؛ الهمُّ كما أشرت إليه. والمهموم تجده يستعيد همومه ومتاعبه باستمرار، ويتذكرها لحظة لحظة دون أن يصل إلى حل لهذه الهموم، وهذا تعب لا ينفع. ولذلك قيل لبعض بني أمية: أين كنت يوم قتل عثمان ﷺ؟

قال: شغلني الغضب له عن الحزن عليه.

وهكذا.. نحن نريد أن نقول لأنفسنا ولإخواننا: يجب أن يشغلنا الغضب للإسلام وللمسلمين عن الحزن عليهم، فإن تحولنا إلى مجرد نُعاة وبكّائين وأصحاب نياحة، فإن هذا لا ينفع شيئًا ولا يغني شيئًا. وإنما الذي يغني، هو أن نعمل ولو قليلاً، وأن تضيء شمعة، خير من أن تلعن الظلام ألف لعنة. ■

(*) عالم ومفكر / المملكة العربية السعودية.

عندما "الدنيا" تودِّع

إذا توقفتْ ساعةُ عمرك،
واختفى صوتُ "بنْدولها"،
وإذا الآزفة أزفتْ،
وشجرة العمر هوَت،
وقيل: "يا روح اخرجي،
وإلى ربِّكِ عودي"..
فإذا عبدًا لله لم تكن،
فلا اعتذارُك يفيد،
ولا حسَراتُك تجدي،
ولا ندمُك في الآخرة ينفع.

* * *

محنة الروح مع الإنسان

أديب إبراهيم الدباغ*

أَصرخ جوعًا، أتحرّق عطشًا، أهتف، أنادي.. وأنت لا تسمعني، أو كأنّك تريد ألا تسمعني.. فيا لك من صاحب سوء ورفيق درب.. لا يعنيك أمري، ولا تشْكُل عليك قضيّتي.. كلما أردتُ علوًّا أثقلتْني خطاياك، وكُلّما أردتُ سُموًّا سَفُلَتْ بي أوزارك، وكلما وجدتُ طريقًا إلى السماء غلقَتْه في وجهي آثامُك.. كسرتَ جناحي، وأبقيتني سجينةَ لحْمك ودمك، وحبيسة غرائزك وشهواتك.. أتريد قتلي، أم نويتَ موتي، أم تريدني شلاّء صمَّاء بكْماءَ، مجردةً من حولي وقوّتي؟ فلا أنا أعلو لأعلوَ بك، ولا أنا أزكو لأزكّيك معي.

ما إلى خبزك جوعي، وما إلى مائك عطشي؛ فخبز الأرواح غير خبز البطون، وأقداح الأرواح غير أقداح الأفواه.. رُحْ عنّي، أرِحْني منك.. فقد سئمتك، ومللتُ صحبتك، وقرفتُ رؤيتك.. ما رأيتُ صاحبًا غدَّارًا مثلك، ولا رفيق درب ختَّالاً مثلك.

وإذا ما استمعتْ الأرواح نداء القدوم على الله، وضجّتْ وماجتْ ومادتْ، واصطفّتْ صفوفًا صفوفًا أمام عرش الرحمن؛ تسبقها الأشواق، وأنوار الوجد والاحتراق.. فأبحث عن مكاني بين صفوفها فلا أجد لي مكانًا، ولا أحظى بينها بترحاب، أو قبول وإيجاب.. أَفَلَسْتَ أنت سبب خِزْيي وعاري، وشماتة أعدائي من شياطين الإنس والجنّ؟ فَمَنْ أنت من دوني؟! أنا التي أعطيتك إنسانيتك، ووهبتُ لك آدميّتك.. فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.. وأنت في مقابل ذلك ماذا فعلتَ من أجْلي؟! تخلّيت عنّي، وتجاهلتَ شوقي ووجْدي، وأغْرَقْتَني بآثامك، وبطوفان ذنوبك.. حتى كدتُ أختنق وأموت، فيقال "هذا إنسان بلا روح، وآدميّ بلا قلب أو وجدان"!

أنا قوامة وجودك الإنساني، وجوهرة خلقِك من العدم.. إنْ كفرتَني وجحدتَني وهجرتني، وقطعتَ ما بيني وبينك من حبال الوصْل، تُهتَ وضُعْتَ، وسقطتَ من علٍ إلى حيث سحيق الخلاء والوَناء وشدة البلاء!

مَنْ أنتَ، وما عقلك من دوني؟! أنا ضوء عقلك إذا أظلم، ومحركة إرادتك إذا استنامَتْ، ومشعلة عزائمك إذا خمدت.. وأنا الهادية من الضلال والضياع، والمتسامية بالساقطين، والمتعالية بالأسفلين، والمنقذة للهالكين.. أتريدني أن أَبرح مسكنك الطيني وأدعك لآمالك الحبيسة وهي ماضية إلى التبخّر والتلاشي؟!

إنك وإن انتَهَكْتَ حرمتي، وغادرتَ كنفي، ونزلتَ في غير منزلي، إلاّ أنني لا زلتُ أشفق عليك، وأرثي لك، وأرجو لك عَوْدًا حميدًا، وأتمنّى لك صحوةً تُوقظ من غطيط نومك، وانتباهًا يعيدك إلى سابق عهدك، فلا تخف ولا تيأس، فحتّى لو زاد تكاثف ضباب الشكوك في عقلك، فإنّي مرسلة خلاله بشعاع سماوي يهديك إليّ ويوجّهك نحوي.

لستُ بالخَوَّارة الهلوع، ولا المستسلمة الصموت، ولا المستكينة الذلول.. بل أنا الدليل الباهر إلى الله الفاطر، والبرهان الساطع على وجود القاهر.. فإذا الإنسان بي استجار، وإليّ توجّه، ومنّي طلب العون، فأمتلئ شعورًا ودّيًّا متحببة للخاطبين ودِّي، والطالبين رِفْدي، والمنضوين تحت مجدي وجلالي وجمالي وهَيبتي وسلطاني.. فيّ وفي كنفي تصنع مصائر الإنسان، وتُرْسَم خارطة حياته، ومنّي تتفجّر ينابيع الخلود، هنا وعندي يتدفّق الزمن، تدفعه تيارات الأبدية نحو شواطئ البقاء السرمدية، أنا ملهمة عظماء الرجال بأعظم أفكارهم، وأنا هادية الإنسان إلى أجلّ أعماله، إلى خارق صنعه، ومعجز إنجازاته.. فالعظمة صنعتي، والخارق همَّتي، والتجديد والابتكار من شأني.. يقظانة لا أنام، حيّة لا أموت.. أنشط ولا أكسل، أصارع الأقدار في صحائف الإنسان، فأصرعها مرةً وتصرعني أخرى، ولكنّي أعود في كل مرة.. أحدِّق في الأزمان، وأتنشّق رائحة الإنسان الآتي من بعيد، يحثّ الخطى، تقوده روحه نحو مكانه العالي من سُلَّم الوجود.

يا أيها الإنسان، ما أشدّ محنتي فيك، وعذابي معك، وحيرتي بك، أما آن لك أن تصالحني، وتأتيني ولا تبعد عنّي، وتلازمني ولا تهجرني، أم أنّك في الغي ستبقى سادرًا، وفي الضلال ستبقى راتعًا؟!

فيا أيها الإنسان، ما أشدّ محنتي فيك، وعذابي معك، وحيرتي بك، أما آن لك أن تصالحني، وتأتيني ولا تبعد عنّي، وتلازمني ولا تهجرني، أم أنّك في الغي ستبقى سادرًا، وفي الضلال ستبقى راتعًا..؟!

ألحظ آيات الحزن والسويداء تطل من عينيك، والحيرة لا زالتْ تعذب قلبك، ولأنّك لم تجد من نفسك جوابًا على أسئلة ما فوق عقلك، فأنت تنوء بحمل أفكارك، وينحني صلبك تحت ثقل أوجاعك.. كم قلتُ لك أنْ تأتيني، وتأخذ عنّي.. فأنا كنز معارفك العلوية، وخزين علومك الماورائية.. كن صادق العزم، وشديد التَّوق، وانشد أمورك العالية منّي، وأجوبتك على لساني، وسُلَّم علوك عندي، إنْ أردتَ علوًّا، أو ابتغيتَ سُموًّا. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

hiragate.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار النيل
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
إسماعيل قايار

المخرج الفني
قسم التصميم بدار النيل

منسق الاشتراكات
علاء إسماعيل الكوابري
+201000780841
+201023201002

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
مطابع الأهرام التجارية
قليوب / مصر

التوزيع
شركة القومية للتوزيع

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ في ما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدًا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- للمجلة حق نشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون إذن من كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال على رغبته في النشر في المجلة المطبوعة. علمًا بأن ما ينشر في الموقع إلكترونيًّا لا يترتب عليه مكافأة مالية.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hiramagazine@yahoo.com / hiramagazine@gmail.com

EUROPE
World Media Group AG
Sprendlinger Landstrabe 107-109
63069 Offenbach a. Main / Germany
Phone: 069 / 300 34 130
Fax: 069 / 300 34 105
Web: abone.wmgag.eu
Email: dergiler@wmgag.eu

YEMEN
مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء – اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
دار المأمون للنشر والتوزيع، العبدلي، عمارة جوهرة القدس
رقم: 182، مدخل البنك العربي، عمان/الأردن.
Phone: +962 0790316072 / +962 0787581782
hiramagazinejordan@gmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطني للتوزيع
Phone: +966 11 4871414
المكتب الرئيسي: حي الازدهار، طريق عثمان بن عفان، مع تقاطع طريق الإمام سعود بن عبد العزيز، العمارة رقم ١٨٢، الطابق الثاني، المكتب رقم ٦
ص.ب: 68761 الرياض: 12537
الجوال: +966507570864
hirasaudia@gmail.com
Phone-Fax: +966 11 4943213

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

LİBYA
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤–طرابلس–ليبيا.
هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

MAURITANIA
Phone: +2223014264

كتاب جديد للأستاذ فتح الله كولن، يعالج قضية معنى الحياة وغاية الوجود، وقضية الموت وما بعد الموت.. ويجيب على ما يؤرق الشباب ويرهقهم من أسئلة عن الخلود والبقاء والأبد والأبدية.

دار النيل : ٢٢ ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر
تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+
daralnile@daralnile.com
www.daralnile.com

تركيا: ٧,٥ ليرة • أوروبا: ٥,٣٠ يورو • أمريكا: ٥ دولارات • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

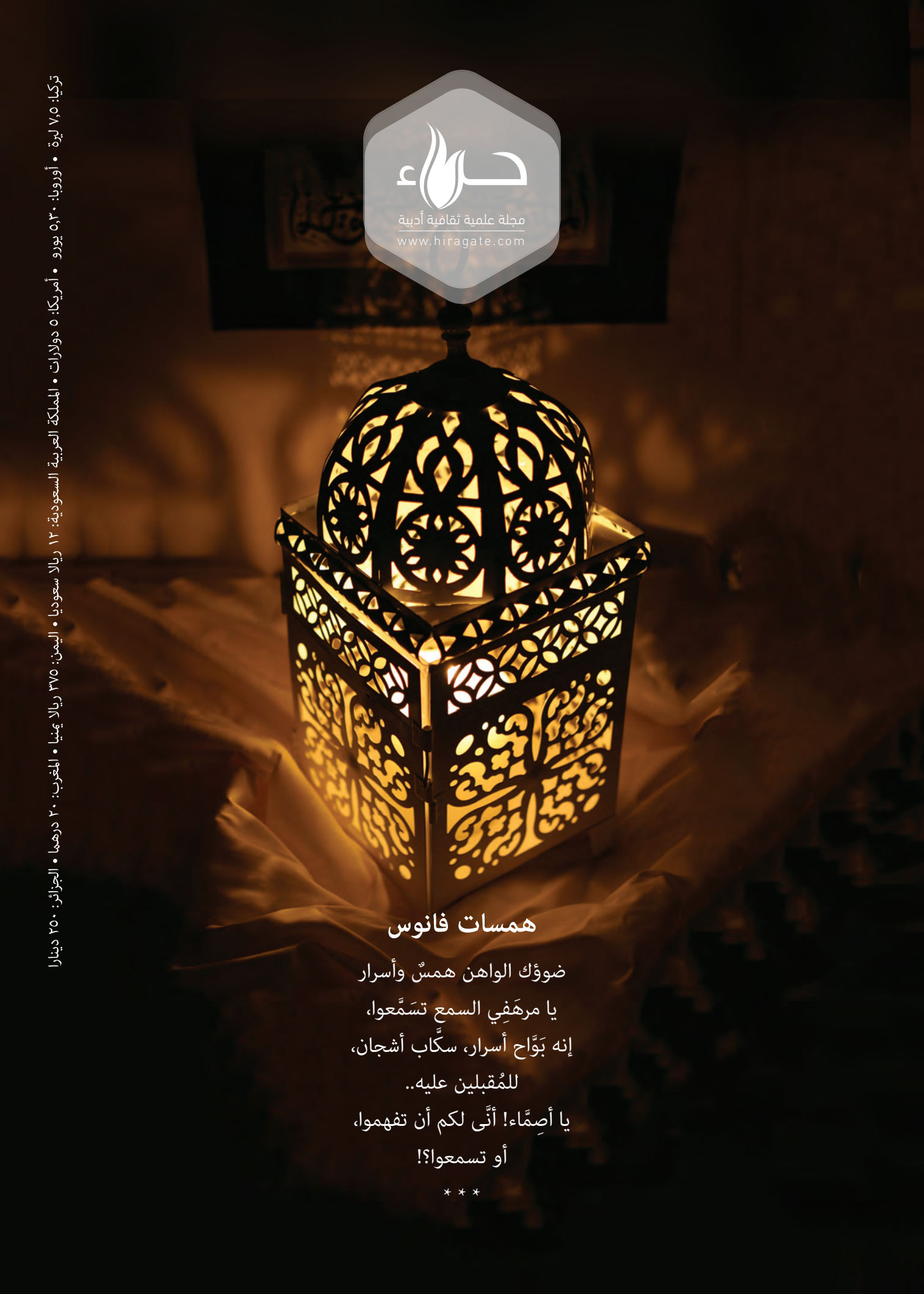

همسات فانوس

ضوؤك الواهن همسٌ وأسرار
يا مرهَفِي السمع تسَمَّعوا،
إنه بَوَّاح أسرار، سكَّاب أشجان،
للمُقبلين عليه..
يا أصِمَّاء! أنَّى لكم أن تفهموا،
أو تسمعوا؟!

* * *